﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

الإصلاح

لا يُصلِحُ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةِ إلاّ ما أَصْلَحَ أَوَّلَهَا



السبيل إلى حفظ النعم

التحرير

مجلة جامعة تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

السنة الرابعة. العدد الحادي والعشرون: رجب/شعبان 1431هـ الموافق لـ جويلية/أوت 2010م

السعر: 150 دج رقم الإيداع القانوني: 2006.3623 ISSN: 1112.6825

دور الأغنياء في الدعوة إلى اللّه ونشر دينه

د. رضا بوشامة

نتائج مسابقة الإصلاح الأولى



التوحيد مفزع الخلق في الشدائد

عبد المجيد تالي



ثقب الأذن لأجل الزينة.. أحكام وضوابط

فؤاد عطا الله



الشيخ عبد العزيز بن الشيخ الهاشمي

سمير سمراد



حكم المسابقات والدورات الرياضية بين المساجد وضوابطها

أ.د. محمد علي فركوس

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ للهِ، نحمدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنْفُسِنا ومِنْ سَيِّئَاتِ أعْمالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له.

وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [سُورَةُ آل عِمرَان].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [سُورَةُ النِّسَاء].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [سُورَةُ الأحزَاب].

أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ اللهِ، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وَكُلَّ ضَلاَلَةٍ في النَّارِ.

﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾

الإصلاح

لا يُصلِحُ آخرَ هذهِ الأُمَّة إلاَّ ما أصلحَ أوَّلَها

مجلة جامعة

تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع



المدير

توفيق عمروني

رئيس التحرير

عز الدين رمضاني

أعضاء التحرير:

عمر الحاج مسعود

عثمان عيسي

نجيب جلواح

التصميم والإخراج الفني:

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

عنوان المجلة:

دار الفضيلة للنشر والتوزيع

حي باحة (03)، رقم (28) الليدو.

المحمدية ـ الجزائر

الهاتف والفاكس:

(021) 51 94 63

التوزيع (جوال): 08 53 62 (0661)

البريد الإلكتروني:

darelfadhila@maktoob.com

الموقع على الشبكة العنكبوتية:

www.rayatalislah.com

افتتاحية

تعلُّم الصَّمت!

إنَّ اللِّسان من أعظم الجَوارح خطرًا، ومن أكثر ما يُدخل النَّار، وأشدِّها فتكًا بدين العبد، وذلك لكثرة آفاته، وتنوُّع شروره من الكذب والغِيبة والسَّبِّ والطَّعن والعُجب وفُضول الكلام والقولِ على الله بغير علم وغيرها...، ولهذا تواردت النُّصوص الشَّرعية على الأمر بحفظه وإمساكه وكفِّ شرِّه، وأنَّه أعظم ما يجب أن تُتقَّى سقطاتُه، فعن سفيان الثَّقفي رضي الله عنه قال: «يَا رَسُولَ اللهِ! أَخْبِرْنِي بِأَمْرٍ فِي الإِسْلَامِ لاَ أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ؛ قَالَ: قُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ؛ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ! فَأَيَّ شَيْءٍ أَتَّقِي؟ قَالَ: فَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى لِسَانِهِ».

وقد أكثر النَّاس قديمًا وحديثًا النَّظم والتَّأليف في أدب الصَّمت وفضل السُّكوت وحفظ اللِّسان، وترك فُضول الكَلام، والحثِّ على تعلُّم الصَّمت، ففي «مكارم الأخلاق» للخَرائطي (483) عن أبي الدَّرداء رضي الله عنه كان يقول: «تعلَّموا الصَّمتَ كما تتعلَّمونَ الكَلامَ؛ فإنَّ الصَّمتَ حكمٌ عظيمٌ، وكُن إلى أنْ تَسمَعَ أحرَصَ منكَ إلى أن تتكلَّم، ولا تتكلَّم في شيء لا يَعنيك، ولا تكن مِضحَاكًا مِن غير عَجَب، ولا مشَّاء إلى غير أَرَب ـ أي إلى غير حاجة ـ».

ونحنُ اليوم أحوج إلى امتثال هذه النَّصيحة الذَّهبيَّة بعد أن راجت بينَنا وسائل الاتِّصال المتنوِّعة الَّتي تسمح لمن شَاء بقَول ما شاء، وتأذنُ لكلِّ أحد أن يكتبَ ما أراد، بلا رقيب ولا حسيب، حتَّى أضحى النَّكرة معلِّمًا وموجِّهًا، وبات الغَمْر ناقدًا وناصحًا، ناهيك عن الفتاوى الشَّاذة والآراء الغَريبة والتَّصوُّرات الباطلة، والنِّقاش العَقيم، مع سوء أدب وتطاول وتجرُّؤ، وافتئات على أهل العلم الكبار، والإعجاب بالرَّأي وحسن الظَّنِّ بالنَّفس والاغترار، وعدم المبالاة بالعواقب والمآلات، ممَّا أفرز ضلالةً كبيرة وهي تحقير العُلماء الكبار، وتعظيم الأدعياء الصِّغار!

فليحذَر العبدُ أن يكونَ مفتاحًا لباب شرٍّ عظيم بسبب كلمة تصدر منه، فإنَّ الكلمةَ إذا خرجَت منك ملكتكَ، وإن حبَستها في صدرك ملكتَها، وإيَّاك أن تكتبَ شيئًا لا يسرُّك أن تلقى به اللهَ عزَّ وجلَّ، وتوقَّف عند كلِّ كلمة أو جملة تريد قولها أو كتابَتَها، فإن كان الأمر ممَّا يعنيك فتكلَّم فيه بخير، وإن كانَ غير ذلك فالسَّلامة في سكوتك وصمتك، قال ابنُ القيِّم: «ولا تتكلَّم إلَّا إذا ترجَّحت مصلحةُ الكلام، وعلمت أنَّ فيه مزيدًا لحالك ومنفعةً لغيرك»؛ واذكر قولَ النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ صَمَتَ نَجَا».

مدير المجلة

في هذا العدد

الافتتاحية: تعلم الصمت/ مدير المجلة.................. 1

الطليعة: السبيل إلى حفظ النعم/التحرير 4

في رحاب القرآن: كشف الوجه الصبيح في فوائد قصة الذبيح

الجزء الثاني /د. عبد المجيد جمعة 6

من مشكاة السنة: أكثر ما يدخل الناس الجنة

/سعدو عبد القادر.................... 9

التوحيد الخالص: التوحيد مفزع الخلق في الشدائد

/عبد المجيد تالي..................12

بحوث ودراسات: ثقب الأذن لأجل الزينة. أحكام وضوابط

/فؤاد عطا الله..........................16

مسائل منهجية: دور الأغنياء في الدعوة إلى الله ونشر دينه

/د. رضا بوشامة 22

تزكية وآداب: تقويم النفس ومحاسبتها لمعرفة ما لها وما عليها

/ محمد لوزاني 26

سيرة وتاريخ: من الرحلات المغربية

/أشرف جلال بن أودينة......................29

فتاوى شرعية: أ. د. محمد علي فركوس 35

سير الأعلام: الشيخ عبد العزيز بن الشيخ الهاشمي

/سمير سمراد 38

أخبار التراث: أولاد المحدِّثين لا أدباء المحدِّثين

/د.جمال عزون..............................45

اللغة والأدب: مشارق الأنوار على مثل الدَّفلى والنَّوَّار

/محمد بوسلامة 47

قضايا تربوية: قرة عين الأبوين في رعاية وتربية البنات

والبنين/نجيب جلواح 54

ألفاظ ومفاهيم في الميزان: لا ينفق الباطل إلا بشوب

من الحق /محمد رحيل.... 58

بريد القراء: التحرير 61

الفوائد والنوادر: التحرير 62



التحرير

السبيل إلى حفظ النعم



د. رضا بوشامة

دور الأغنياء في الدعوة إلى الله ونشر دينه



محمد بوسلامة

مشارق الأنوار على مثل الدَّفلى والنَّوَّار

العدد السابق





عبد المجيد تالي

التوحيد مفزع الخلق في الشدائد



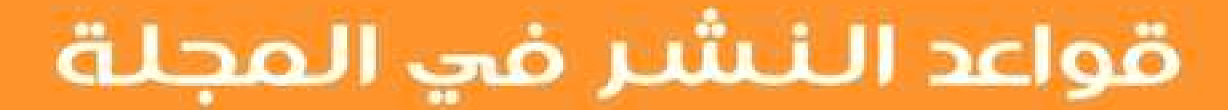
سمير سمراد

الشيخ عبد العزيز بن الشيخ الهاشمي



محمد لوزاني

تقويم النفس ومحاسبتها لمعرفة ما لها وما عليها



قواعد النشر في المجلة

- أن تكون الموضوعات مطابقة لخطة المجلة، وموافقة لمنهجها.
- أن يكون المقال متسمًا بالأصالة والاعتدال.
- أن يحـرَّر المقال بأسلوب يحقق الغرض، ولغة بعيدة عن التكلف والتعقيد.
- الدقة في التوثيق والتخريج مع الاختصار.
- أن تكون الكتابة على الكمبيوتر، أو بخطٍّ واضح مقروء؛ وعلى وجه واحد من الورقة.
- ألا يزيد المقال على خمس صفحات.
- أن يذكر صاحب المقال اسمه الكامل وعنوانه ورقم هاتفه، ودرجته العلمية إن وجدت.
- المقالات أو البحوث التي لا تنشر لا تردُّ لأصحابها.

الافتتاحية

السبيل إلى حفظ النعم



التحرير

إنَّ على كلِّ من رضي بالله ربًّا وبمحمَّد ﷺ نبيًّا ورسولاً، وبالإسلام دينًا، أن يحمد الله ويثني عليه الخير كلّه، على هذه النِّعمة العظيمة الَّتي هي أعظم النِّعم وأجلُّها، وما أكثر نعم الله على عبيده، ولكن أكثر النَّاس لا يشكرون.

والنِّعمة: اليد البيضاء الصَّالحة والصنيعة والمنَّة وما أُنعم به عليك، ونعمة الله مَنُّه وما أعطاه العبدَ ممَّا لا يمكن غيره أن يعطيه إيَّاه كالسَّمع والبصر والعقل والصِّحَّة والمال والعلم وما إلى ذلك ممَّا لا يمكن عدُّه وحصره والإحاطة به: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ [سورة النحل]،

وجميع النِّعم قليلها وكثيرها، ظاهرها وباطنها من الله وحده، إذ هو المتفضِّل بها والمبتدي بها عبده، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ٥٣﴾ [سورة النحل].

ونِعَمُ الله على نوعين: ظاهرة وباطنة، أو دينيَّة ودنيويَّة، فالظَّاهرة يتقلَّب فيها جميعُ الخلق ويشعر بها جلُّهم وإن تباينوا في الاعتراف بها وشكرها، أو في إنكارها وجحدها، والباطنة ينعم بها من اصطفاه الله ووفَّقه إلى الهدى والخير وألهمه ذكرها وشكرها، وقد أشار الله إلى هذين النَّوعين في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠﴾ [سورة لقمان].

ومعلوم أنَّ السَّبيل لبقاء النِّعم ودوامها ونموِّها هو شكر المنعم بها، المتفضِّل بها على عباده، قال تعالى: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١٧٢﴾ [سورة البقرة].

كما أنَّ سبب زوالها ونقصها هو ترك شكر النِّعمة أو جحودها، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ [الأنفال: 53].

ولذلك قيل: الشُّكر قيد للنِّعم الموجودة، وصيد للنِّعم المفقودة، وكانوا يسمُّونه «الحافظ»؛ لأنَّه يحفظ النِّعم الموجودة، ويسمُّونه «الجالب»؛ لأنَّه يجلب النِّعم المفقودة، فالنِّعمة إذا شُكرت قرَّت، وإذا كُفرت فرت.

والله ـ جلَّ وعلا ـ يُذكِّر عباده بنعمه عليهم ويدعوهم بها إلى معرفته ومحبَّته وطاعته وتصديق رسله والإيمان بلقائه، كما تضمَّنته سورة النِّعم ـ وهي سورة النَّحل ـ وسمِّيت بذلك لأنَّ الله ذكر فيها أصول النِّعم وفروعها، وعددها عليهم نعمة نعمة، وأخبر أنَّه أنعم بذلك عليهم ليسلموا له، فتكمل نعمه عليهم بالإسلام، الَّذي هو رأس النِّعم وأجلُّها وأولاها بالذِّكر والشُّكر.

والعاقل إذا قلَّب النَّظر في هذه النِّعم وجدها تحيط بنا من كلِّ جانب، وتسبغ علينا ظاهرًا وباطنًا، ونتقلَّب فيها صباح مساء، وليل نهار، لا تنقطع عنَّا طرفة عين، ولا نحرم منها أدنى شيء، غير أنَّه وللأسف الشَّديد نجد صورًا خطيرة في مقابلة تلك النِّعم، تخالف ما أوجبه الله علينا من الحمد والشُّكر والاعتراف بمسديها ومبديها، فنرى من النَّاس من ينسب النِّعمة لغير الله

الكريم المنَّان، ومنهم من يقابلها بالذُّنوب والعصيان، ومنهم من يحصل له بسببها الغرور والكبر والعدوان، ومنهم من لا يؤدِّي حقَّ الله فيها وما إلى ذلك من صور الكفر والجحود والنُّكران.

وإنَّ من نعم الله الَّتي تستحقُّ الشُّكر والحمد نعمة التَّحرُّر من قبضة المتسلِّط الكافر والمستعمر الغادر الَّذي عاث في أرض المسلمين ـ ومنها أرض الجزائر ـ بالفساد والإفساد، ونشر عبادة الصَّليب والإلحاد، واستغل العباد وثروات البلاد، وارتكب أشنع الجرائم من الإرهاب والتَّقتيل والتَّخريب والتَّنكيل في حقِّ شعبنا الأعزل.

فبعد عقود من الزَّمن وتحت التَّسلُّط والقهر في محاولة لمسخ معالم الشَّخصيَّة الإسلاميَّة وزعزعة مقوِّمات الأمَّة من الدِّين واللُّغة والتَّاريخ، لم تفلح الإرادة الفرنسيَّة ولا إدارتها في تحقيق مرادها والوصول إلى أهدافها وهو أن يصير هذا الجزء من أرض الإسلام جزءًا من فرنسا يدين بدينها ويتكلَّم بلغتها ويفخر بتاريخها.

ولكن بفضل الله وعونه قيَّض الله لهذا البلد رجالاً ذبُّوا عن حياض الأمَّة بشجاعة وبسالة لم يعرف لها نظير في التَّاريخ المعاصر، وأعلنوا الجهاد المقدَّس ضدَّ المستعمر الكافر، فكان المقاتل منهم يسمَّى المجاهد، والمقتول يسمَّى الشَّهيد، وشعار المعركة عندهم: «الله أكبر»، ممَّا يدلُّ على ذلك الانتماء الأصيل الَّذي سرى في عروق النُّزهاء والشُّرفاء من أبناء هذا البلد ـ صانه الله من كلِّ مكر ـ إلى أن حقَّقوا بفضل الله ذلك النَّصر المجيد، وأعادوا للأمَّة ماضيها التَّليد، وحوّلت الكنائس إلى مساجد، ويومها فرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء.

إنَّ هذه النِّعمة الَّتي هي نعمة النَّصر أو الاستقلال أو الحريَّة ـ والَّتي لا تهمُّنا منها أسماؤها ومبانيها بقدر ما تهمُّنا مسمَّياتها ومعانيها ـ يشترك فيها الجميع، ويتغنَّى بها الكلُّ، ويتباهى بالحديث عنها كلُّ من أتيح له الكلام في مناسبة وفي غير مناسبة، غير أنَّ الَّذي يقدِّر هذه النِّعمة حقَّ قدرها لا ينتظر حلول الذِّكريات ولا وقفة المناسبات، ليتكلَّم أو يخطب أو يرفع شعارًا أو يدَّعي حبًّا؛ لأنَّ الحبَّ رخيص حين يكون زعمًا وكلامًا، ولكنَّه غال وثمين حين يكون عملاً وتضحية وإخلاصًا وإقدامًا.

إنَّ الَّذي يقدر هذه النِّعمة بحقٍّ يجب أن يحافظ عليها، وأن يحرص على بذل أسباب بقائها ودوامها، وإلاَّ سلبت منه طوعًا أو كرهًا، فإنَّ أعداء الله عبَّاد الصَّليب وغيرهم من الكافرين وإن رفعوا اليوم أقدامهم من جلِّ أراضي المسلمين إلاَّ أنَّهم أنزلوا بالمسلمين استعمارًا من طراز آخر، وهو الاستعمار الفكري عن طريق جلب نظام التَّعليم الغربي، والمدارس الأجنبيَّة العالميَّة ونشر الإنجيل والدَّعوة إلى حوار الأديان وحماية الأقليَّات وإفساد المرأة وما إلى ذلك من مخطَّطاتهم الهدَّامة، فمن حاربهم بالأمس وفتح لهم اليوم عقله وقلبه ليستعمروه من جديد عقيدة وفكرًا ومنهجَ حياة لم يقدِّر هذه النِّعمة ولم يدع لها حرمتها، وإنَّ من استهان بدين الأمَّة اليوم أو لسانها أو تاريخها لم يقدِّر هذه النِّعمة؛ لأنَّه يحاكي الاستعمار في جرائمه ويخلفه في مكره وكيده، وإنَّ من زرع بذور الفتنة بين أبناء الأمَّة اليوم من خلال إحياء النَّعرات الجاهليَّة والمذاهب الإلحاديَّة الهدَّامة والمناهج الضَّالَّة لأهل الأهواء ويروج لها باسم حريَّة الرَّأي والمعتقد لم يقدِّر هذه النِّعمة حقَّ قدرها؛ لأنَّه يريد رفع الأمن وزعزعة الاستقرار، وجعل الأمَّة تعيش في تمزُّق وشتات، وفتن وشمات، وإنَّ من سرق أموال الأمَّة واعتدى على أملاكها نهبًا وتضييعًا وتبذيرًا وتهريبًا لم يقدِّر نعمة الله ولا تنفعه سابقته ونضاله؛ لأنَّ الله لمَّا وصف أصحاب محمَّد ﷺ الأحياء منهم والميِّتين، قال عنهم: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب].

فأثبت لهم وصف الرُّجوليَّة بأحد أمرين: إمَّا بالشَّهادة، وإمَّا بالثَّبات، فلتحفظ النِّعم ولتلهج الألسن والقلوب والجوارح بشكرها، ولتحذر من إغفالها وتناسيها فإنَّه كما قيل:

إذا كنت في نعمة فارْعَها
فإنَّ المعاصي تزيل النِّعم
وداوم عليها بشكر الإله
فإنَّ الإله سريع النِّقم

جعلنا الله من الشَّاكرين الحامدين، القائمين بحقِّ نِعَم ربِّ العالمين، وصلَّى الله وسلَّم على خير النَّبيِّين وسيِّد المرسلين، نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.



كشف الوجه الصَّبيح في فوائد قصة الذبيح

(الجزء الثاني)

د/ عبد المجيد جمعة

أستاذ محاضر بجامعة الأمير عبد القادر. قسنطينة

الفائدة الثَّامنة والثَّلاثون:

فيه فضل إبراهيم وإسماعيل عليهما السَّلام، حيث أثنى الله عليهما باستسلامهما ومبادرتهما لامتثال أمر الله تعالى؛ وهذا حقيقة الإسلام وهو الانقياد التَّامُّ لأمر الله تعالى.

الفائدة التَّاسعة والثَّلاثون:

فيه استحباب اضطجاع الأضحية عند الذَّبح، وأن يَذبَحَ المضحِّي بيده، لقوله تعالى: ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾، ويشهد له ما رواه أنس رضي الله عنه قال: «**ضَحَّى النَّبيُّ ﷺ بِكَبْشَين أَملحَيْن فرأيته وَاضعًا قَدَمَه على صفاحهما**[1] **يسمِّي ويكبِّر فذَبَحَهُما بيده**» متَّفق عليه.

الفائدة الأربعون:

فيه دلالة على إثبات الإرادة والاختيار للعباد خلافًا للجبريَّة، لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾، ونظيره في القرآن لا يكاد يحصى ولا يستقصى، يسند الله تعالى الأفعال إلى العباد الَّذين قاموا بها كقوله تعالى: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص : 15].

الفائدة الحادية والأربعون:

وفيه فضل نبيِّنا ﷺ؛ لأنَّ الله تعالى لم يناده باسمه «محمَّد»، بل ناداه بصفة الرِّسالة أو النُّبوَّة، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ تعظيمًا له وتبجيلاً، ولم يذكر اسمه إلاَّ في صيغة الإخبار، كقوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح : 29]، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران : 144]؛ أمَّا سائر أنبيائه فناداهم بأسمائهم، كقوله: ﴿أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾، وكقوله: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة :35]، ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ﴾ [هود :48]، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ [الأعراف :144]، ﴿يَٰعِيسَىٰٓ﴾ [آل عمران : 55].

الفائدة الثَّانية والأربعون:

فيه فضل طاعة الله وامتثال أمره، فإنَّه سبب في صرف المصائب، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هكذا نصرف عمَّن أطاعنا المكاره والشَّدائد، ونجعل لهم من أمرهم فرجًا ومخرجًا، كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق].

الفائدة الثَّالثة والأربعون:

استُدلَّ بالآية على أنَّ الأضحية بالغنم أفضل من الإبل والبقر.

الفائدة الرَّابعة والأربعون:

وفيه استحباب الأضحية بالسَّمينة، لقوله تعالى: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ أي ضخم الجثَّة سمين.

الفائدة الخامسة والأربعون:

واستُدلَّ بالآية على أنَّ من نذر ذبح ولده، لزمه ذبح شاة، كما فدى به إبراهيم ابنه؛ وفيه نظر، والصَّحيح أنَّه معصية يلزمه الاستغفار منها، قال الكيا الهرَّاسي في «أحكام القرآن» (78/4): «وهذا إغفال منهم، فإنَّه إن ثبت أنَّ إبراهيم كان مأمورًا بذبح الولد، فقد ارتفع الأمر إلى بدل جعل فداء، فكان الأمر متقرِّرًا في الأصل، ثمَّ أُزيل ونُسِخَ إلى بدل، وفيما نحن فيه

(1) قال النَّووي في «شرح مسلم» (121/13): «أي صفحة العنق وهي جانبه وإنَّما فعل هذا ليكون أثبتَ له وأمكنَ لئلاَّ تضطرب الذَّبيحة برأسها فتمنعه من إكمال الذَّبح أو تؤذيه».

• قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ ۚ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [سورة الصافات].

لا أمر بذبح الولد، بل هو معصيةٌ قطعًا، فلم يكن للأمر تعلُّق بذبح الولد بحال، فإذا لم يتعلَّق به بحال، فلا يجوز أن يجعل له فداءً وخلفًا».

الفائدة السادسة والأربعون:

فيه دلالة على أنَّ الأنبياء أشدُّ النَّاس بلاءً، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾، ويشهد له قوله ﷺ وقد سئل: أيُّ النَّاس أشدُّ بلاءً؟: قال: **«الأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ، فَيُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِه، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ في دِينِه رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِه، فَمَا يَبْرَحُ البَلاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»**[2].

الفائدة السَّابعة والأربعون:

وفيه دلالة على ما تقرَّر في الأصول على صحَّة النَّسخ قبل التَّمكُّن من الفعل، خلافًا لطائفة من المعتزلة، والدَّلالة من هذه الآيات ظاهرة، لأنَّ الله تعالى أمر إبراهيم بذبح ولده، ثمَّ نسخه عنه قبل التَّمكُّن من فعله، وصرفه إلى الفداء بذبحٍ عظيمٍ.

الفائدة الثَّامنة والأربعون:

وفيه دلالة على إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى، لقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾، فابتلى الله نبيَّه في محبَّته له سبحانه وتقديمها على محبَّته لابنه حتَّى تتمَّ خلَّته، فكان المقصود الابتلاءَ لا نفسَ الفعل؛ لأنَّ الله سبحانه وتعالى لا يأمر بفعل لا مصلحةَ ولا منفعةَ ولا حكمةَ فيه، بل أوامره سبحانه ونواهيه وجميع شرائعه مبنيَّةٌ على حِكَمٍ ومصالحَ ومنافعَ.

فالحكمة هنا ناشئة من نفس الأمر، والمصلحة حاصلةٌ به، أمَّا الفعل فلا مصلحةَ فيه ألبتَّة، لذلك كان المقصود من الأمر الحكمة منه وهي الابتلاء دون الفعل.

الفائدة الثَّامنة والأربعون:

وفيه ثناء الله تعالى على إبراهيم عليه السَّلام، حيث أبقى عليه لسان صدقٍ وثناءً حسنًا في العالم، فلا يذكر إلا بالثَّناء، والصَّلاة والسَّلام عليه، ووصفه بثلاث خصال، الإحسان والعبوديَّة والإيمان، فجمع مقامات الدِّين كلِّه، لقوله: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

الفائدة التَّاسعة والأربعون:

وفيه دلالة على أنَّ الذَّبيح هو إسماعيل وليس هو إسحاقَ كما يزعم اليهود والنَّصارى، وذلك أنَّ الله تعالى لما ذكر البشارة الأولى بالغلام الحليم من ابني إبراهيم، وذكر قصَّة الأمر بذبحه، فلمَّا استوفى ذلك، عطف بذكر البشارة الثَّانية بالابن الثَّاني، وقد سمَّاه إسحاق فقال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، فبيَّن أنَّهما بشارتان: بشارةٌ بالذَّبيح وبشارةٌ ثانيةٌ بإسحاق، وهذه البشارة من الله تعالى له شكرًا على صبره على ما أُمِرَ به، فدلَّ هذا على أنَّ إسحاقَ غير الغلام الحليم الَّذي أُمِرَ بذَبحه؛ ومن المقرَّر في الأصول أنَّ التَّأسيس أولى من التَّأكيد؛ ومعلومٌ في اللُّغة أنَّ العطف يقتضي المغايرة، فهذا نصٌّ صريحٌ لا يحتمل التَّأويل.

قال القرطبيُّ في «تفسيره» (100/15): وسُئل أبو سعيد

(2) أخرجه التِّرمذي (2398) وابن ماجه (4023) عن سعد بن أبي وقَّاص، بإسناد جيِّد، وهو صحيح بشواهده. أنظر «الصَّحيحة» (143).

الضَّرير عن الذَّبيح فأنشد :

إنَّ الذَّبيح هُديت إسماعيلُ
نطق الكتاب بذاك والتَّنزيلُ
شرفٌ به خَصَّ الإلهُ نبيَّا
وأتى به التَّفسير والتَّأويلُ
إن كنت أمَّته فلا تنكر له
شرفًا به قد خصَّه التَّفضيلُ

الفائدة الخمسون:

وفيه ثناء الله على إسحاق - عليه السَّلام -، لقوله تعالى: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ﴾.

الفائدة الحادية والخمسون:

وفيه إشارة إلى أنَّ النَّسب لا ينفع صاحبه، وإنَّما ينفعه عملُه، لقوله تعالى: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴾، أي: محسن في عمله بالإيمان، والتَّوحيد، وظالم لها بالكفر والشِّرك والمعاصي؛ فاليهود والنَّصارى، وإن كانوا من ولد إسحاق، فقد صاروا إلى ما صاروا إليه من الكفر والضَّلال المبين؛ والعرب، وإن كانوا من ولد إسماعيل، فقد صاروا إلى الشِّرك إلاَّ من أنقذه الله بالإسلام، وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**وَمَن بَطَّأَ بِهِ عَمَلُه لَم يُسرِع بِهِ نَسَبُه**» رواه مسلم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في «منهاج السُّنَّة» (151/8): «ولهذا لم يثن الله على أحد في القرآن بنسبه أصلاً لا على ولد نبيٍّ ولا على أبي نبيٍّ وإنَّما أثنى على النَّاس بإيمانهم وأعمالهم وإذا ذكر صنفًا وأثنى عليهم فلما فيهم من الإيمان والعمل لا لمجرَّد النَّسب ولَمَّا ذكر الأنبياء ذكرهم في الأنعام وهم ثمانية عشر قال: ﴿ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ﴾ [سورة الأنعام]، فبهذا حصلت الفضيلة باجتبائه سبحانه وتعالى وهدايته إيَّاهم إلى صراطٍ مستقيم لا بنفس القرابة».

الفائدة الثَّانية والخمسون:

فيه أنَّ عاقبة الصَّبر على البلاء محمودة؛ وذلك أنَّ إبراهيم عليه السَّلام لما ابتلاه الله تعالى بذبح ابنه، امتثل لأمر ربِّه، وصبر على بلائه، فجزاه الله تعالى أن فداه بذبح عظيم، وجعل له لسان ذكرٍ في الآخرين، ورزقه غلامًا آخر من الصَّالحين.

هذا ما يسَّر الله لي جمعه من بدائع الفوائد، وإلاَّ لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله تعالى، وقد جعل الله كتابه ربيعَ القلوب ونورَ الصُّدور وجَلاءَ الأحزان وذهابَ الهموم.



أكثر ما يدخل الناس الجنة

عبد القادر سعدو

وهران

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:
سُئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدخلُ النَّاس الجنّة؟ فقال:
«تَقْوَى الله وَحُسْنُ الخُلُقِ»[1].



هـذا الحديث من جوامع كلـم سيِّد ولـدِ آدم محمَّد ابن عبـد الله ﷺ، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾ [سورة النجم]، أرسلـه ربُّنـا بشـيرًا ونذيـرًا وداعيًا إليه بإذنـه وسراجًا منيرًا، ثمَّ صيَّر طاعته فرضًا، واتِّباعه رحمةً، ومحبَّتـه قربةً، وتعزيـرَه دينًا، وتوقيرَه هـدًى، وتعظيمَه عزًّا، وجعل الذِّلَّة والصَّغار على من خالف أمرَه.

وفي هـذا المقال بيان شيءٍ من كنـوز هذا الحديث النَّبويِّ العظيم.

(1) رواه الترمذي في «سننه» (2134) وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ غَرِيبٌ، وحسنه الألباني، انظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (977).

«سُئل رسولُ الله ﷺ عَن أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ؟»

■ كان رسـول الله ﷺ هـو مرجـعَ النَّاس في حياتـه في كلِّ أمـرٍ مـن أمورهم صغـيرًا كان أو كبيرًا، إذ أمـرُ التَّشريع مرتهـنٌ بـه، فكان يُعلِّـم أصحابَـه شـأنَ دينِهـم، وإذا عـنَّ لصحابتـه سـؤالٌ أو حدثت لهـم واقعةٌ سارعـوا إليه فوجدوا الجوابَ الشَّافي والبيانَ التَّامَّ.

■ كان مقصـود الصَّحابة الكرام مـن طلب العلم هو العمل، لم يكن مرادُهم أبدًا الدُّنيا وجزاءَها من الرِّياء والسُّمعة والرِّفعة والظُّهـور والمنصَـب والرِّياسة وغيرها ممَّا يفسـد دينَ المرء، بل كان لـبُّ تعاملهم مع معلِّمهـم ﷺ هو امتثال أوامـره والاهتداء بطريقتـه في شؤون الحياة كلِّها، فـكان من حرصهم على تطبيق مـا يسمعونه من في رسول الله ﷺ الطَّيِّـب الشَّريف أنَّهم سألوه عـن أفضل الأعمال؟ وأحسـن الأقوال؟ وأكثر مـا يدخل الجنَّة؟ وأكـثر ما يدخـل النَّار؟ وتكاد هذه الأسئلة تكـون غائبةً عن أكثر أهل زماننا، والله المستعان.

■ «إنَّ الله سبحانـه قد خلق الجنَّـة فأعدَّها دار نعيم وخلود لأوليائه المؤمنين وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم»[1].

«تَقْوَى الله»

■ تقـوى الله هي وصيَّة الرَّبِّ جـلَّ جلاله للأوَّلين والآخرين، قـال الله سبحانـه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: 131]، ووصيَّة النَّبيِّ الكريم ﷺ في

(1) انظر: «عقيدة ابن أبي زيد القيرواني المالكي» و«العقائد الإسلامية» للعلاَّمة عبد الحميد بن باديس الجزائري.

أكبر محفلٍ شهده المسلمون، فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجَّة الوداع فقال: «**اتَّقُوا الله رَبَّكُم وَصَلُّوا خَمْسَكُم وصوموا شَهْرَكُم وأَدُّوا زَكَاةَ أموالكُم وأَطيعُوا ذَا أَمْرِكُمْ تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ**»[2]، وحقيقة تقوى الله أن يجعل المرءُ بينه وبين ما يوجب عقاب الله وعذابه صيانةً وستارًا بعبادته وطاعته إيمانًا واحتسابًا، فيمتثل ما أمره الله به إخلاصًا للآمر ورجاءً لوعده، ويترك ما نهاه عنه إيمانًا به وخوفًا من وعيده، فعن طلق بن حبيب رحمه الله قال: «التَّقوى: عملٌ بطاعة الله رجاء رحمة الله على نورٍ من الله، والتَّقوى: تركُ معصيةِ الله مخافةَ عقابِ الله على نورٍ من الله»[3].

■ تقوى الله هي المقصد من تشريع الأحكام، ذلك أنَّ الله - غالبًا - لا يُكلِّف العباد بحكم في كتابه إلاَّ ويذكر عقبه التَّقوى، فمَن تأمَّل - مثلاً - تشريع الأركان الخمسة علم وضوح ذلك وصدقه، فقد قال الله في التَّوحيد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة] ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥﴾ [الأعراف] وقال في الصَّلاة والزَّكاة: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾ [البقرة] وفي الصِّيام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة]، وفي الحجِّ: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [البقرة: 203].

■ من أبدع ما جاء في كلام العليِّ الكبير في شأن التَّقوى آيتان هما: قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف: 26]، وقوله سبحانه: ﴿فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [البقرة: 197]، فذكر الله في هاتين الآيتين خيرَ لباسٍ وخيرَ زاد، فباللِّباس يُواري الإنسان جسدَه ويستر عورتَه ويتزيَّن به، وخير ذلك التَّقوى، فهو يستمرُّ مع العبد في الدُّنيا والبرزخ والآخرة، ولا يبلى ولا يبيد، وهو زينة الباطن وجمال الظَّاهر، وبالزَّاد يُستغنى عن النَّاس وتُقام البنية ويُعان الرُّفقاء، وبه يَتمُّ السَّفر ويتحقَّق القصد، وخير ذلك التَّقوى، فهو زادٌ إلى الله والدَّار الآخرة، موصلٌ إلى أجلِّ رجاءٍ وأكملِ نعيم، فإذا تقرَّر هذا عُلِم أنَّ أعقلَ النَّاس وأفضلَهم مَن لزم خيرَ اللِّباس والزَّاد، فعن ميمون بن مهران رحمه الله أنَّه أتاه رجلٌ فقال له: لا يزال النَّاس بخيرٍ ما كنت فيهم، قال: لا يزال النَّاس بخيرٍ ما اتَّقوا الله[4].

«حُسن الخُلق»

■ حقيقةُ حسنِ الخلق قولُ الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف]، بل «لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَجْمَعَ لِمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ مِنْهَا»[5]، قال ابن العربي المالكي رحمه الله: «قَالَ عُلَمَاؤُنَا: هَذِهِ الآيَةُ مِنْ ثَلَاثِ كَلِمَاتٍ، قَدْ تَضَمَّنَتْ قَوَاعِدَ الشَّرِيعَةِ الْمَأْمُورَاتِ وَالْمَنْهِيَّاتِ، حَتَّى لَمْ يَبْقَ فِيهِ حَسَنَةٌ إِلاَّ أَوْضَحَتْهَا، وَلَا فَضِيلَةٌ إِلاَّ شَرَحَتْهَا، وَلَا أُكْرُومَةٌ إِلاَّ افْتَتَحَتْهَا، وَأَخَذَتِ الْكَلِمَاتُ الثَّلَاثُ أَقْسَامَ الإِسْلَامِ الثَّلَاثَةَ»[6]، و«ذلك أنَّ النَّاس صنفان: صنفٌ محسنٌ، فـ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ أي: خذ ما عفا وصفَا لك من أفعاله وإحسانه، وتسهَّل ولا تطلب ما يشقُّ عليه، ولا تكلِّفه فوق جَهده، وإمَّا مسيءٌ، فـ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾ أي: أمُره بالمعروف المستحسن من الأفعال، فإن استعصى عليك وتمادى على ضلاله، واستمرَّ في جهله، فـ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، أي: فلا تماره ولا تكافئه بمثل أفعاله، فلعلَّ ذلك أن يردَّ كيدَه»[7]، ففضائل الأخلاق «لا تعدو أن تكون: عفوًا عن اعتداء فتدخل في ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾، أو إغضاءً عمَّا لا يلائم فتدخل في ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾، أو فعلَ خيرٍ واتِّسامًا بفضيلة فتدخل في ﴿وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ﴾»[8]، لهذا لمَّا سُئل عبدُ الله ابن المبارك رحمه الله عن وصف حسْن الخلق، قال: «هو بسط الوجه وبذل المعروف وكفُّ الأذى»[9]، فكانت الطريقةَ المثلى في معاشرة الخَلق.

■ اعلم بارك الله فيك أنَّ الخلق الحسن ليس لونًا من

(2) رواه «الترمذي» (616) وقال: حديث حسن صحيح، وصحَّحه الألباني.
(3) «مصنف» ابن أبي شيبة(8/250).

(4) «حلية الأولياء» (4/90).
(5) رُوِيَ ذلك عَنْ جَعْفَر الصَّادق رحمه الله، انظر: «فتح الباري» لابن حجر(13 / 66).
(6) «أحكام القرآن» لابن العربي(4 / 70).
(7) انظر: «تفسير» ابن كثير (3/532) و«تفسير» البيضاوي (2 / 355).
(8) انظر: «التحرير والتنوير» (6 / 53).
(9) رواه الترمذي في «سننه» (2005).

الـتَّرف يمكن الاستغنــاء عنه عند اختــلاف البيئــة، وليس ثوبًا يرتديه الإنسان لموقـف ثمَّ ينزعه متى يشاء، بل إنَّها ثوابتُ وقيمٌ لا تتغـيَّر بتغيُّر الزَّمان والمكان بل هي ضـرورةٌ لا ينبغي انفكاكُها عـن أيِّ مجتمـعٍ وإلاَّ الهلاك، لهذا كان تقريـرُ محاسن الأخلاق مـن مقاصد دعوةِ الأنبيـاء عليهم الصَّلاة والسَّـلام، وقد قصَّ الله علينـا شيئًا من ذلك فقال في حـقِّ نبيِّه شعيب عليه الصَّلاة والسَّـلام: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٨٥)﴾ [سورة الأعراف]، وقـال في حـقِّ نبيِّـه لـوط عليـه الصَّـلاة والسَّـلام: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥)﴾ [سورة النمل]، وقـال في حـقِّ نبيِّه عيسـى عليه الصَّـلاة والسَّـلام: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢)﴾ [سورة مريم]، ومن ذلك ما وضَّحه جعفرُ بنُ أبي طالب رضي الله عنه للنَّجاشـي في حقِّ نبيِّنا محمَّد ﷺ فقال لـه: «أيُّها الملك كنَّـا قومًا أهلَ جاهليَّةٍ نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطـع الأرحام ونسـيء الجوار ويأكل القويُّ منَّـا الضَّعيف فكنَّا علـى ذلك حتَّـى بعث الله إلينا رسـولاً منَّا نعـرف نسبه وصدقه وأمانتـه وعفافه، فدعانا إلى الله لتوحيـده ولنعبدَه ونخلعَ ما كنَّا نعبد نحن وآباؤنا مـن دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدقِ الحديـثِ وأداءِ الأمانـةِ وصلةِ الرَّحم وحسنِ الجـوار والكفِّ عن المحارم والدِّماء ونهانا عن الفواحش وقول الزُّور وأكلِ مالِ اليتيم وقذفِ المحصنةِ وأن نعبدَ الله لا نشرك به شيئًا وأمرنا بالصَّلاة والـزَّكاة والصِّيام...»[10]، بل حصر ﷺ هدف رسالته في تثبيت الفضائلِ الخلقيَّة فقال: «**إنَّما بعثتُ لأتمِّمَ صَالِحَ الأخلاق**»[11].

■ الإنسانُ مدنيٌّ بطبعـه لا بدَّ له من الاختلاط ببني جنسه، خاصَّة أهله كوالديه وزوجته وأولاده وإخوته، فلا يمكنه الاستغناء عنهم والاستقلال بنفسه في جميع أموره، فحرصُ العبد على حسن الخلـق يسهِّل عليه إدراكَ المطالب، وتلينُ له به المصاعبُ ويحبِّبُه إلى أهلـه ويتمكَّن به من معاملة كلِّ أحد بمـا يناسب حالَه ويليقُ بـه، لذلك قال رسـول الله ﷺ: «**خَيْرُكُمْ خَيْرُكم لأَهْلِه**...»[12]، فـ«أَعْلَى النَّاسِ رُتْبَةً فِي الْخَيْرِ، وَأَحَقُّهُمْ بِالاتِّصَافِ بِهِ هُوَ مَنْ كَانَ خَـيْرَ النَّاسِ لأَهْلِهِ، فَإِنَّ الأَهْلَ هُـمْ الأَحِقَّاءُ بِالْبِشْرِ وَحُسْنِ الْخُلُقِ وَالإِحْسَـانِ وَجَلْبِ النَّفْعِ وَدَفْعِ الضُّـرِّ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ كَذَلِكَ فَهُوَ خَيْرُ النَّاسِ وَإِنْ كَانَ عَلَى الْعَكْسِ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ فِي الْجَانِبِ الآخَرِ مِنْ الشَّرِّ، وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ النَّاسُ فِي هَذِهِ الْوَرْطَةِ، فَتَرَى الرَّجُلَ إِذَا لَقِـيَ أَهْلَهُ كَانَ أَسْوَأَ النَّاسِ أَخْلاقًـا وَأَشحَّهم نَفْسًا وَأَقَلَّهُمْ خَيْرًا، وَإِذَا لَقِيَ غَيْرَ الأَهْلِ مِنْ الأَجَانِبِ لانَتْ عَرِيكَتُهُ وَانْبَسَطَتْ أَخْلاقُهُ وَجَادَتْ نَفْسُهُ وَكَثُرَ خَيْرُهُ، وَلا شَكَّ أَنَّ مَنْ كَانَ كَذَلِكَ فَهُوَ مَحْرُومُ التَّوْفِيقِ زَائِغٌ عَنْ سَوَاءِ الطَّرِيقِ، نَسْأَلُ اللهَ السَّلامَةَ»[13].

■ ■ ■

وختامًـا يمثِّل هـذا الحديثُ لـبَّ الإسلام وحقيقتَـه ألا وهي الجمـع بين القيام بحقِّ الله ـ بتقواه ـ و القيام بحقِّ عباده ـ بحسن الخلق ـ، ممَّا جعل شريعةَ الإسلام بحقٍّ دينًا جميلاً كاملاً صالحًا مصلحًا لكلِّ زمانٍ ومكانٍ.

فاللَّهـمَّ آتِ نفوسنـا تقواهـا وزكِّها أنت خير مـن زكَّاها أنت وليُّهـا ومولاها، وسبحانك اللَّهمَّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلاَّ أنت أستغفرك وأتوب إليك.

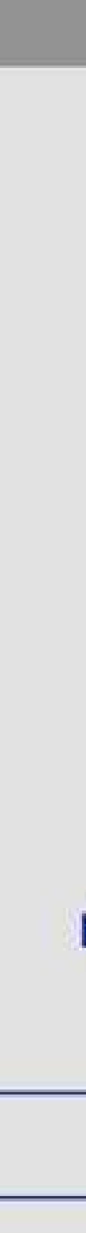


(10) «صحيح» ابن خزيمة (2260) وصححه الألباني انظر: «فقه السيرة» (119)

(11) رواه «أحمد» (8952) والبخاري في «الأدب المفرد» (273) وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (45).

(12) رواه «الترمذي» (3895) وصحَّحه الألباني، انظر: «السلسلة الصحيحة» (285).

(13) «نيل الأوطار» (189/10).



التوحيد

مفزع الخلق في الشدائد

عبد المجيد تالي

ليسانس علوم إسلامية ـ الجزائر

إنَّ من القضايا المهمَّة في الإسلام والَّتي هي أُسُّه وأساسُه الإخلاصُ للّه عزَّ وجلَّ وتوحيدُه في القول والعمل، فما قامت السَّماواتُ والأرضُ وما أُنْزِلَت الكتبُ وأرسلَت الرُّسلُ وشُرِعَت الشَّرائعُ، وما خُلِقَت الخَليقَةُ إلاَّ لأجل ذلك.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56]، وقال جلَّ وعلا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25].

فالتَّوحيد «هو دينُ الإسلام العامُّ، الَّذي بعثَ اللّه به جميعَ الرُّسل، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: 36]»[(1)].

وهو دعوةُ الرُّسلِ قاطبةً وموروثُ الأمَّة عن القرون المفضَّلة، بل هو فطرةُ اللّه الَّتي فطرَ النَّاسَ عليها كما ثبتَ عنه ﷺ: «ما من مَوْلود إلاَّ يُولَدُ على الفطْرَة فأبَواهُ يُهَوِّدَانه أو يُنَصِّرَانه أو يُمَجِّسانه»[(2)]، وقال ﷺ ذاتَ يَوْم في خُطْبَته «أَلا إنَّ رَبِّي أَمَرَني أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهلْتُمْ ممَّا عَلَّمَني يَوْمي هَذَا»، وفيه: «وإنِّي خَلَقْتُ عبَادي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دينهمْ»[(3)]، فهو الأصلُ في بني الإنسان وهم مَجْبُولُونَ على النُّزُوعِ إليه في الشَّدائد والصِّعاب، وضيقِ السُّبلِ وانسدادِ الطُّرق، على اختلاف نِحَلِهم وتَعَدُّدِ مذاهبِهم كما شهدَ بذلك القرآنُ الكريم والسُّنَّةُ المطهَّرة.

قال ابن القيِّم رحمه الله: «التَّوحيدُ مَفزَعُ أعدائه وأوليائه، فأمَّا أعداؤه فيُنَجِّيهم من كُرَبِ الدُّنيا وشدائدِها، ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: 65]. وأمَّا أولياؤه فينجِّيهم به من كُرباتِ الدُّنيا والآخرة وشدائدها، ولذلك فَزِعَ إليه يونسُ فنجَّاه اللّه من تلك الظُّلمات[(4)]، وفزِعَ إليه أتباعُ الرُّسل، فَنُجُّوا به ممَّا عُذِّبَ به المشركون في الدُّنيا، وما أعدَّ لهم في الآخرة. ولَمَّا فَزِعَ إليه فرعونُ عند معاينة الهلاك، وإدراك الغرق، لم ينفعْه[(5)]؛ لأنَّ الإيمانَ عند المعاينة لا يقبلُ، هذه سنَّةُ اللّه في عباده، فما دُفعَتْ شدائدُ الدُّنيا بمثل التَّوحيد، ولذلك كان دعاءُ الكرب بالتَّوحيد[(6)]، ودعوةُ ذي النُّون[(7)] الَّتي ما دَعَا بها

> فما دُفِعَتْ شدائدُ الدُّنيا بمثل التَّوحيد

> فلا يُلْقي في الكُرَب العظام إلاَّ الشِّرك، ولا يُنْجِي منها إلاَّ التَّوحيدُ، فهو مَفْزَعُ الخليقة ومَلْجَؤُها، وحِصْنُها وغيَاثُها

(1) مجموع الفتاوى (71/1).

(2) رواه البخاري (1358)، ومسلم (2658) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(3) رواه مسلم (2865) من حديث عيَاض بْنِ حِمَار الْمُجَاشِعِيِّ رضي الله عنه.

(4) كما في سورة الأنبياء (الآية:87-88).

(5) كما في سورة يونس (الآية: 90-92).

(6) كما رواه البخاري (6346)، ومسلم (2730).

(7) كما رواه التِّرمذي (3505)، وأحمد (1462)، والطَّبراني في «الدُّعاء» (124)، والحاكم (505/1) و(583/2) عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

مكروبٌ إلاَّ فَرَّجَ اللهُ كربَه بالتَّوحيد، **فلا يُلقي في الكُرَبِ العظامِ إلاَّ الشِّرْكُ، ولا يُنْجي منها إلاَّ التَّوحيدُ، فهو مَفْزَعُ الخليقةِ ومَلْجَؤُها، وحِصْنُها وغِيَاثُها**. وبالله التوفيق»[8] اهـ.

ولنا مع هذا النَّقلِ عن هذا الإمام الرَّبَّانيِّ رحمه الله وقفات:

الوقفةُ الأُولَى. التَّوحيدُ مفزعُ الأعداء:

وهو لهم مَنْجَاةٌ من كربِ الدُّنيا وشدائدها، فإذا جاءتهم الشِّدَّةُ والكربُ والغمُّ والضَّنكُ، لَجَؤُوا إليه يدعونَه وحدَه، ويتوسَّلون إليه بالتَّوحيد، فيكشفُ عنهم ذلك الغمَّ والكرب، كما قال تعالى: ﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة الأنعام].

يوضِّحُ هذا المقصدَ ويُبَيِّنُه ما قصَّه ربُّنا جلَّ وعلا لنا عنهم، في غير ما موضعٍ من كتابه الكريم.

ففي سورة يونس: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة يونس].

قال القرطبي رحمه الله في «جامعه» (630/4): «وفي هذا دليلٌ على أنَّ الخلق جُبِلُوا على الرُّجوع إلى الله في الشَّدائد، وأنَّ المضطرَّ يُجَابُ دعاؤُه، وإن كان كافرًا، لانقطاعِ الأسبابِ ورجوعه إلى الواحدِ ربِّ الأرباب» اهـ.

يجلِّي تلك الحالَ الَّتي هم عليها، ويجسِّدُها تَجْسيدًا حيًّا واضحًا، ما روى مصعبُ بنُ سعد عن أبيه قال: لمَّا كان يومُ فتح مكَّةَ، أَمَّنَ رَسُولُ الله ﷺ النَّاسَ إلاَّ أَرْبَعَةَ نَفَرٍ وَامْرَأَتَيْنِ، وقال: «**اقْتُلُوهُم وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُم مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الكَعْبَة**»، عكرمةَ ابْنَ أبي جهل وعبدَ الله بْنَ خَطَلٍ ومِقْيَسَ بن صُبَابَةَ وعبدَ الله بْنَ سَعْدِ ابنِ أبي السَّرْحِ... وفيه: **وأمَّا عكرمةُ فَرَكِبَ البَحرَ فَأَصَابَتْهم عَاصِفٌ**[9]**، فقال أصحابُ السَّفِينة: أَخْلصوا فَإِنَّ آلهَتَكم لا تُغْني عَنْكُم شيئًا هَهُنَا، فقال عكرمة: وَاللهِ لَئِنْ لَمْ يُنَجِّنِي مِنَ البَحْرِ إلاَّ الإخلاصُ لا يُنَجِّيني فِي البَرِّ غَيْرُهُ، اللَّهُمَّ إِنَّ لَكَ عَلَيَّ عَهْدًا إِنْ أَنْتَ عَافَيْتَني ممَّا أَنَا فيه، أَنْ آتيَ محمَّدًا ﷺ حتَّى أَضَعَ يَدِي فِي يَدِه فَلأَجِدَنَّه عَفُوًّا كريمًا فجاءَ فَأَسْلَم**» الحديث[10].

فائدة: قال أبو المظفر السَّمعاني رحمه الله: «وإنَّما خَصَّ البحرَ بالذِّكر، لأنَّ اليأسَ عند وُقُوعِ الشِّدَّة فيه أَغْلَبُ»[11].

■■■

الوقفةُ الثانيةُ: التَّوحيدُ مَفْزَعُ الأولياءِ والأَصْفِيَاء:

وهو لهم مَنْجَاةٌ مِنْ كُرَبِ الدُّنيا والآخرة وشَدَائدهَا.

أمَّا كُرَبُ الدُّنيا وشدائدها: فلَجَأَ إليه الأبُ الكريمُ آدمُ عليه السَّلام لمَّا كَادَهُ إبليسُ اللَّعينُ فأَوْقَعَه فيما أوقعه فيه، «فاعْتَرَفَ وتابَ، ونَدِمَ وتَضَرَّعَ واسْتَكَانَ، وفَزِعَ إلى مَفْزَعِ الخَلِيقَةِ وهو التَّوحيدُ والاستغفارُ، فأُزِيلَ عنه العَتْبُ وغُفِرَ لَهُ الذَّنْبُ، وقُبِلَ منه المَتَابُ وفُتِحَ له مِنَ الرَّحْمَةِ والهِدَايَةِ كُلُّ بَابٍ»[12] قال تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : 23].

ولجأ إليه نَبيُّ الله يُونُسُ عليه السَّلام فَنَجَّاهُ من الشِّدَّة الَّتي وقع فيها، قال تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [سورة الأنبياء].

وفي قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ بِشَارَةٌ لكلِّ مؤمنٍ يَقْتَدي بيونسَ عليه السَّلام في إخلاصه وصِدْقِ توبته، ودعائه لربِّه.

أي: ومثل هذا الإِنْجَاءِ الَّذي فَعَلْنَاهُ مع عبدنا يونسَ عليه السَّلام، نُنَجِّي عبادَنا المؤمنينَ من كلِّ غمٍّ، **مَتَى صَدَقُوا في إيمانهم، وأَخْلَصُوا في دعائهم**.

وفَزِعَ إليه نَبيُّنا ﷺ في نَوَازلَ عديدة، وشَدَائدَ كثيرة أَلَمَّتْ به وبأصحابه رضي الله عنهم في حياته الدَّعوية، ومنها غزواته كبدر وحنين والأحزاب فعن أنسِ بن مالك، قال: كان رسول الله ﷺ إذا غَزَا، قال: «**اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضُدي وَنَصِيري، وَبِكَ أُقَاتِلُ**»[13]. وفي لفظ:

(8) فوائد الفوائد (44/-45).

(9) أي: ريحٌ عاصفٌ، وهي شديدةُ الهبوبِ. أفاده في القاموس مادة: (ع ص ف).

(10) أخرجه النسائي (4067)، وأبو داود (2683)، وهو صحيح، انظر «الصحيحة» (1723).

(11) «تفسير السَّمعاني» (261/3).

(12) «إغاثة اللهفان» (203/2).

(13) رواه النسائي في الكبرى (8576)، وأبو داود (2632)، والترمذي (3584)، صحيح انظر «صحيح الجامع» (4757).

التوحيد الخالص

«بِكَ أَحُولُ وَبِكَ أَصُولُ وَبِكَ أُقَاتِلُ».

أَمَّا كُرَبُ الآخِرَةِ: فقد قال ربنا جلَّ وعلا لنبيِّه ﷺ: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ﴿١٩﴾ ﴾ [سُورَةُ مُحَمَّدٍ].

قال أبو العالية وابن عيينة ـ رحمهما الله تعالى ـ معناه: «إذا جاءتهم السَّاعةُ فاعلمْ أنَّه لا ملجأ ولا مفزع عند قيامِها إلاَّ إلى الله»[14]، على أحد التَّفسيرات في الآية، والله تعالى أعلم.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ ﴾ قال: قال رسول الله ﷺ «يَرِدُ[15] **النَّاسُ النَّارَ كُلُّهُمْ ثُمَّ يَصْدُرُونَ عَنْهَا بِأَعْمَالِهِمْ**»[16].

وممَّا لا شكَّ فيه أَنَّ مِنْ أجلِّ أعمالهم الَّتي يَصْدُرُونَ بِهَا عَنْهَا التَّوْحيدُ، إذ هو أصلُ الأعمالِ والمصحِّحُ لها.

عن يحيى بن طلحةَ بن عبيدِ الله قال: «رأى عمرُ طلحةَ ابنَ عبيدِ الله ثقيلاً، فقال: ما لك يا أبا فلان؟ لَعَلَّكَ سَاءَتْكَ إِمْرَةُ ابْنِ عَمِّكَ يا أبا فلانٍ؟ قال: لا ـ وأثنى على أبي بكر ـ إلاَّ أنِّي سمعتُ من رسول الله ﷺ حديثًا مَا مَنَعَنِي أَنْ أَسْأَلَهُ عنه إلاَّ القُدْرَةُ عليه حَتَّى مَاتَ، سَمِعْتُه يقول: إنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لاَ يَقُولُهَا عَبْدٌ عند مَوْتِه إلاَّ أَشْرَقَ لَهَا لَوْنُهُ، وَنَفَّسَ اللهُ عنه كُرْبَتَهُ، قال: فقال عمرُ: إنِّي لأَعْلَمُ ما هي! قال: وما هي؟ قال: تَعْلَمُ كَلِمَةً أَعْظَمُ مِنْ كَلِمَةٍ أَمَرَ بها عَمَّه عند الموتِ: لا إله إلاَّ الله؟ قال طلحة: صدقتَ، هِيَ واللهِ هِيَ»[17].

■■■

الوقفةُ الثَّالثةُ ـ كَوْنُهُ مَفْزَعُ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ:

وهذه فَرْعٌ عن سابقتها، وهي سُنَّةٌ مَاضِيَةٌ في الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ، قال جلَّ وعلا: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ ﴾ [الأنعام : 90].

والمقصود بأتباع الرُّسل هنا: **كُلُّ مُتَّبِعٍ لِسَبِيلِهِم في المُعْتَقَدِ والشِّرْعَةِ والسُّلُوكِ والعَمَلِ.**

(14) انظر «تفسير» البغوي (285/7).

(15) انظر للإفادة في معنى (الورود) «فتح الباري» لابن حجر العسقلاني (799/3–700).

(16) أخرجه الإمام أحمد (4141)، صحيح انظر «صحيح الجامع» (8081).

(17) أخرجه الإمام أحمد (1384)، وابن حبان (2) بنحوه، والحاكم (350،351/1) والزيادة له، وقال «صحيح على شرطهما» ووافقه الذهبي والشيخ الألباني في أحكام الجنائز (48 ـ 49).

قال ابن القيِّم رحمه الله: «أخبرَ سبحانه عَمَّا استَنْصَرَتْ به الأنبياءُ وأُمَمُهم على قومهم مِنْ اعْتِرافِهم وتوبتِهم واستغفارِهم وسُؤالِهم ربَّهم أَنْ يُثَبِّتَ أقدامَهم وأَنْ يَنْصُرَهُم على أعدائِهم فقال: ﴿ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا وَحُسۡنَ ثَوَابِ ٱلۡأٓخِرَةِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ] لَمَّا عَلِمَ القومُ أَنَّ العدوَّ إنَّما يُدَالُ عليهم بذُنُوبِهم، وأَنَّ الشَّيطانَ إنَّما يَسْتَزِلُّهُم ويَهْزِمُهُم بها، وأَنَّها نوعان: تَقْصِيرٌ في حَقٍّ أَوْ تَجَاوُزٌ لحدٍّ، وأَنَّ النُّصْرَةَ مَنُوطَةٌ بالطَّاعَة، قالوا: رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا، وإِسْرَافَنَا في أمرنا، ثُمَّ عَلِمُوا أَنَّ ربَّهم تبارك وتعالى إنْ لَمْ يُثَبِّتْ أقدامَهم وينْصُرْهُم لم يَقْدِرُوا هُمْ على تَثْبِيت أقدام أَنْفُسِهِم ونَصْرِها على أعدائِهم، فسَأَلُوهُ ما يعلمون أَنَّه بيَدِه دُونَهُم، وأَنَّه إنْ لم يُثَبِّتْ أقدامَهم ويَنْصُرْهُم لم يَثْبُتُوا ولم يَنْتَصِرُوا، فوَفَّوْا المَقَامَيْنِ حَقَّهُمَا: مَقَامَ المُقْتَضِي، وهو التوحيدُ والالْتِجَاءُ إليه سبحانه، ومقامَ إِزَالَةِ المَانِعِ مِنَ النُّصْرَةِ، وهو الذُّنوبُ والإسرافُ» اهـ[18].

فالآياتُ وإنْ كانتْ في الجهادِ في سبيل الله تعالى **فهي مِنْ حَيْثُ التَوَجُّهُ واللُّجُوءُ إلى الله تعالى أَعَمُّ**، وهَذَا العُمُومُ هو المَوْرُوثُ عَنْ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ عليهم وعلى نَبِيِّنَا أَزْكَى صَلَاةٍ وتَسْلِيم.

يُوَضِّحُهُ قوله تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [سُورَةُ النَّحْلِ].



(18) «زاد المعاد في هدي خير العباد» (225/3–226).

الوقفةُ الرَّابعةُ. الفزَعُ إلى التَّوحيد عند المعاينة لاَ ينفعُ:

لأَنَّ من سُنَّة الله في عباده أَنَّ الإيمانَ عند المُعَايَنَة لاَ يُقْبَلُ.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة غافر].

قال الطَّبري رحمه الله: «يقولُ تعالَى ذِكْرُهُ: فلم يكُ يَنْفَعُهُم تصديقُهم في الدُّنيا بتوحيد الله عند معاينة عقابه قد نَزَلَ، وعذابه قد حَلَّ، لأَنَّهُم صَدَّقُوا حينَ لاَ ينفعُ التَّصديقُ مُصَدِّقًا، إذْ كان قد مَضَى حكمُ الله في السَّابق منْ علمه، أَنَّ مَنْ تابَ بعد نزول العذاب منَ الله على تكذيبه لم تَنْفَعْه توبتُه»[19].

وذلك لأَنَّ إيمانَهم في تلْكَ الحَال «إيمانٌ ضرورة، قد اضْطُرُّوا إليه، وإيمانٌ مشاهدة، وإنَّما الإيمانُ النَّافعُ الذي يُنْجي صاحبَه، هو الإيمانُ الاختياريُّ، الذي يكونُ إيمانًا بالغيب، وذلك قبلَ وجود قرائن العذاب»[20].

والحقيقةُ أَنَّ الإيمانَ عند المعاينة، منَ السُّنَن المأثورة عن أمثال هؤلاء الظَّلَمَة كما حَكَى ذلك عنهم رَبُّنَا جلَّ وعلا في كتابه الكريم، أَمَّا أهلُ الإيمانِ والتَّقوى فهم على ما وَصَفَ ربُّنا تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [سورة آل عمران].

■■■

الوقفةُ الخامسةُ. الفزَعُ إلى التَّوحيد دَافِعٌ لشدائد الدُّنيا وكُربها:

فما دُفِعَتْ **شدائدُها** وكربُها بمثل التَّوحيد، لذَا كان دعاءُ الكرب بالتَّوحيد، ودعوةُ ذي النُّون التي ما دَعَا بها مكروبٌ إلاَّ فَرَّجَ اللهُ عنه بالتَّوحيد.

فعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: أَنَّ رسولَ الله ﷺ كان يقولُ عند الكَرْب -وهو ما يدهم المرء ممَّا يأخذ بنفسه فيغمُّه ويحزنه-: **«لا إلهَ إلاَّ اللهُ العظيمُ الحليمُ، لا إلهَ إلاَّ اللهُ ربُّ العرش العظيم، لا إلهَ إلاَّ اللهُ ربُّ السَّماوات وربُّ الأرض وربُّ العرش الكريم»**[21].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، أَنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **«دعْوةُ ذي النُّون، إذ دَعَا وهو في بطن الحوت، لاَ إلهَ إلاَّ أَنْتَ، سُبحانَكَ إنِّي كُنْتُ منَ الظَّالمينَ فإنَّه لم يَدْعُ بها رَجُلٌ مُسْلمٌ في شيءٍ قطُّ إلاَّ استجابَ اللهُ لَهُ»**[22].

فـ«ما منْ مؤمنٍ يُصيبُه الكربُ والغَمُّ فيَبْتَهلُ إلى الله داعيًا بإخلاص، إلاَّ نَجَّاهُ اللهُ من ذلك الغمِّ، ولا سيما إذا دَعَا بدعاءِ يونسَ هذا»[23].

■■■

الوقفة السَّادسة. الشِّرْكُ سَبَبُ هَلاَك العَالَم، و المُوقِعُ في الكُرَب العِظَام:

أَمَّا كونُه سببُ هلاك العَالَم:

فقد قال ابن القيِّم رحمه الله: **«ومَنْ تَدَبَّرَ أحوالَ العَالَم وجدَ كلَّ صلاحٍ في الأرض فسببُه توحيدُ الله، وعبادتُه، وطاعةُ رسوله، وكلَّ شرٍ في العالم، وفتنة، وبلاء، وقحط، وتسليط عدو، وغير ذلك، فسببُه مخالفةُ رسوله، والدَّعوةُ إلى غير الله ورسوله، ومَنْ تَدَبَّرَ هذا حقَّ التَّدَبُّر، وتَأَمَّلَ أحوالَ العالم منذُ قامَ إلى الآن وإلى أَنْ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها وهو خيرُ الوارثينَ وجدَ هذا الأمرَ كذلك في خاصَّة نفسه، وفي حقِّ غيره عمومًا وخصوصًا، ولا قوةَ إلاَّ بالله العلي العظيم»** اهـ[24].

وأمَّا كونُه الموقعُ في الكُرَب العظَام: فيَتَبَيَّنُ بضدِّه، فالضِّدُّ يتبيَّنُ بالضِّدِّ.

فإذا كان التَّوحيد هو أساسُ سعادة العباد في الأُولَى والعُقْبَى، وسببُ نجاتهم فيهما، كان الشِّركُ بالله جلَّ وعلا على النَّقيض من ذلك، فهو سببُ كلِّ بليَّةٍ ورزيَّةٍ وقعتْ بالإنسانية على الإطلاق، وكتابُ ربِّنَا جلَّ وعلا وسنَّةُ نبيِّنَا ﷺ أكبرُ دليلٍ على ذلك، وشاهدُ الحالِ وواقعُ الخلق صورةٌ بيانيةٌ لذلك.

فالواجب على كلِّ إنسانٍ أَنْ يُمَيِّزَ بين حقوق الله تعالى الَّتي هي من خصائص ربوبيَّته، الَّتي لا يجوزُ صرفُها لغيره، وبين حقوق خلقه، ليَضَعَ كلَّ شيءٍ في موضعه، على ضوء ما جاءَ به النبيُّ ﷺ في هذا القرآن العظيم والسُّنَّة الصَّحيحة[25].

وصلِّ اللَّهُمَّ وسلِّم وبارك على نبيِّنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

(19) «جامع البيان في تأويل القرآن» (424/21).
(20) «تفسير السعدي» (1196/2).
(21) رواه البخاري (6346)، ومسلم (2730).
(22) رواه الترمذي (3505)، وأحمد (1462).
(23) «أضواء البيان» (163/3).
(24) «بدائع الفوائد» (525/3-526).
(25) «أضواء البيان» (162/5).

التوحيد الخالص

بحوث ودراسات

ثَقبُ الأُذُنِ لأجْلِ الزِّينة...

أحكَامُ وضَوَابِطُ

فؤاد عطا الله

ماجستير في العلوم الإسلامية - وادي سوف

اهتمَّ الإسلامُ بإصلاحِ بَاطنِ الإنسانِ وظَاهرِه، وَشَرَعَ لتلكَ الغَايَةِ النَّبيلةِ من الأحكَامِ مَا يحقِّقُ بينهما التَّكَاملَ المحمود، ويَمحُو التَّناقضَ المذموم.

وميَّزَ الإسلامُ المسلمين عن غيرهم بأجملِ هديٍ ظاهرٍ، وأقومِ هديٍ باطنٍ، والمسلمُ مطالبٌ شرعًا بالاستقامةِ على الهَديَيْن، دون تقصيرٍ في أحدِهما، حتَّى يُحقِّق الإيمانَ بالكتابِ كلِّه، ويتجنَّب مُشَابهةَ الَّذين يؤمنون ببعض الكتابِ ويكفُرُون ببعضٍ.

فسُنَّةُ رسولِ الله ﷺ وشِرْعتُه ومنهاجُه، وأقوالُه وأفعالُه ومظاهرُه، كلُّها حسنةٌ طيِّبةٌ، تُباينُ سبيلَ المغضوبِ عليهم والضَّالين، وتُخالفُ طريقَ الكفَّارِ والمشركين، والمجوسِ والوَثنيِّين.

ومن أعظمِ مقاصدِ الدِّينِ وأُصُولِه تمييزُ الحقِّ وأهلِه عن الباطلِ وأهلِه، والمسلمُ مأمورٌ بمخالفةِ الكفَّارِ في جميعِ أحوالِهم، في العقائدِ والعباداتِ والعاداتِ والآدابِ والسُّلوك.

وإذا أَجَلتَ فِكْرَك في الأحكامِ الشَّرعيَّةِ المتعلِّقةِ بتحسينِ المظهرِ وجدتَّها كثيرةً لا تكاد تُحصى، منها على سبيلِ المثالِ لا الحصر:

مـا يتعلَّـقُ بـآدابِ الطَّعامِ والشَّـرابِ كالأكلِ باليمينِ، والأكلِ ممَّا يَلِـي الآكلِ، ومنها ما يتعلَّقُ بآدابِ اللِّباسِ والزِّينةِ، كتحريمِ إسبَـالِ الثِّيـابِ، وتحـريمِ الذَّهبِ والحريرِ علـى الرِّجالِ، ووجوبِ توفيرِ اللِّحَى وحـفِّ الشَّوارِبِ، والختانِ، وتَقليـمِ الأظافرِ، وإزالةِ الشَّعرِ المُستَقذَرِ، والنَّهيِ عن القَزَعِ، والنَّهيِ عن تغييرِ خلقِ اللهِ جلَّ وَعَلا، وحرمةِ تغييرِ الشَّيبِ بالسَّوادِ، ووصلِ الشَّعرِ، والنَّمصِ، ووَشْرِ الأسنانِ وتَفْليجها.

ومنها ما يتعلَّقُ بآدابٍ أخرى كطريقةِ إلقاءِ السَّلامِ، وهيئةِ الجُلوسِ والاضطِجَاعِ، والأخذِ باليمينِ والإعطاءِ باليمينِ.

وغير ذلك من الأحكامِ الكثيرةِ المبنيَّةِ على حِكَمٍ ربَّانيَّةٍ عظيمةٍ، والمُنطَويةِ على مقاصدَ شرعيَّةٍ جليلةٍ.

ومن القضايا المتعلِّقة بالشَّكلِ الظَّاهري الَّتي تَعَلَّق بها حكمٌ شرعيٌّ ثابتٌ: مسألةُ ثقبِ الأُذُنِ من أجلِ تَعليقِ القُرطِ، قصد التزين.

في هذا المقال أحاول. ولو بجُهدِ المقلِّ. تسليطَ ضوءِ الدِّراسةِ الفقهيَّةِ المقارنةِ على هذه المسألة.

أوّلا. ثقبُ أُذُنِ الصَّبيِّ الذَّكَرِ:

اتَّفَقَ الفقهاءُ على كراهةِ ثَقبِ أُذُنِ الصَّبيِّ الذَّكَرِ[1]، قال الإمامُ أحمدُ رحمه الله: «أَكرَهُ ذلك للغُلام، إنَّما هو للبنات»[2].

وإطلاقُ لفظِ الكراهةِ هُنَا يُرادُ به التَّحريمُ، وهو إطلاقٌ دَأَبَ عليه الأئمَّةُ: مالكٌ والشَّافعيُّ وأحمدُ وغيرُهم - رحمهم الله جميعًا - وهو غالبُ عبارةِ المتقدِّمين[3]، يُطلقُون المكروهَ على المحرَّمِ تورُّعًا وحَذَراً من الوُقُوعِ تحت طائلةِ النَّهي الوارد في قوله تعالى: ﴿كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُواْ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [سورة النحل].

وفي هذا الصَّدد بيَّن العلَّامةُ ابنُ القيِّم رحمه الله أنَّ الغفلةَ عن هذا الاصطلاح الخاصِّ أوقعَ في الغلط كثيراً من المتأخِّرين من أتباع الأئمَّة على أئمَّتهم، حين نَفَوا التَّحريمَ عمَّا أطلَقَ عليه الأئمَّةُ الكراهةَ[4].

ودليلُ تحريم ثقب أذن الصَّبيِّ الذَّكر انعدامُ المعنى الَّذي لأجله أُبيحَ ثقبُ أُذُنِ الأنثى، وهو حاجةُ المرأة للتَّزيُّن، الَّذي يُكمِّل نقصَها.

وهُنا تنبيهان:

التَّنبيه الأوَّل: من المظاهر المَرَضيَّة المُؤسِفة الَّتي انتشرت بين بعض شباب المسلمين اليومَ تَحَلِّي الذُّكور بأقراط يضعونها على آذانهم، منها ما يَستَوجبُ ثقبَ الأذن، ومنها ما يُوضعُ دون ثقبٍ، يفعلون ذلك تقليدًا للغربيِّين من الممثِّلين والمغنِّين والرِّياضيِّين!

وهذا يَنِمُّ عن رقَّةٍ في الدِّين، وضعفٍ في الشَّخصيَّة، ونقصٍ في الإيمان، وتأثُّرٍ بالموجات التَّغريبيَّة، وأُنسٍ بالكافرين، وميلٍ إلى طباعهم.

ألا فليقرأوا: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾ [سورة المنافقون]، وليتذكَّروا قولَ النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُو مِنهُم»[5].

من الطُّقُوس الخُرافيَّة الشِّركيَّة ثَقبُ أُذُنِ الطِّفل المَريض، والاعتقادُ بأنَّ ذلك يَرفعُ المَرَضَ، ويُذهِبُ مسَّ الشَّياطين! مع تحليةِ الأُذُنِ المثقوبةِ بخيطٍ فيه رقيةٌ

التَّنبيه الثَّاني: من الطُّقُوس الخُرافيَّة الشِّركيَّة ثَقبُ أُذُنِ الطِّفل المَريض، والاعتقادُ بأنَّ ذلك يَرفعُ المَرَضَ، ويُذهبُ مسَّ الشَّياطين! مع تحلية الأُذُن المثقوبة بخيط فيه رقيةٌ، وقد يكون كلُّ ذلك على يد مشعوذ أو ساحر، ومنهم من يُمعنُ في الخُرافة، ويُوغلُ في الدَّجل؛ فيُعَلَّق في الخيط حبَّةَ قمح!!.

وثقبُ الأذن إذا ارتبط بمثل هذه الاعتقادات الفاسدة خرج عن كونه مسألةً فقهيَّةً تتردَّد بين الحلِّ والحرمة، وطرق أبواب الاعتقاد مُتنقِّلا في مواطن الشِّرك بين أصغره وأكبره، بحسب اعتقاد فاعله، والشِّركُ صَغيرُهُ وكَبيرُهُ ذَنبٌ عَظيمٌ، فَحَذارِ أن يقع فيه أحد.

ثانيا. ثقبُ أُذُنِ الصَّبيَّةِ الأُنثى:

اختلَفَ الفُقَهَاءُ - رحمهم الله - في حُكم ثقب أذن الصَّغيرة لتعليق القرط على مذهبين:

من المظاهر المَرَضيَّة المُؤسِفة الَّتي انتشرت بين بعض شبابِ المسلمين اليومَ تَحَلِّي الذُّكور بأقراط يضعونها على آذانهم، منها ما يَستَوجبُ ثقبَ الأذن، ومنها ما يُوضعُ دون ثقب

المذهب الأوَّل. يجوز ثقبُ أذن الصَّبيَّة بقصد التَّزيُّن:

وإليه ذهب جمهورُ العلماء من الحنفيَّة، والمالكيَّة، وهو المعتمدُ عند بعض الشَّافعيَّة، والصَّحيحُ عند الحنابلة[6].

واستدلُّوا بالأدلَّة الآتية:

---

(1) «البحر الرَّائق شرح كنز الدَّقائق» لابن نجيم (8/ 554)، «نهاية المحتاج» للرَّملي (34/8)، «تحفة المودود بأحكام المولود» لابن القيِّم (ص209)، «الموسوعة الفقهية الكويتية» (273/11).

(2) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (3/ 338).

(3) انظر: مسألة ما يطلق عليه المكروه في: «المهذَّب في علم أصول الفقه المقارن» للدُّكتور عبد الكريم النَّملة (285/1).

(4) «إعلام الموقِّعين» لابن قيِّم الجوزيَّة (1/ 39 - دار الجيل).

(5) «أبو داود» (3512)، و«أحمد» (3868)، كلاهما عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما، وصحَّحه العلاَّمة الألباني في «إرواء الغليل» (2691).

(6) «الاختيار لتعليل المختار» للموصلي (178/4)، «الدُّر المختار» لابن عابدين (420/6)، «البحر الرَّائق» لابن نجيم (554/8)، «تبيين الحقائق» للزَّيلعي (227/6)، «شرح مختصر خليل» للخرشي (148/4)، «تحفة المحتاج» لابن حجر الهيتمي (127/2)، «تحفة الحبيب على شرح الخطيب» للبجيرمي (508/2)، «الإنصاف» للمرداوي (98/1)، «كشَّاف القناع» للبهوتي (81/1).

السُّنَّةُ التَّقريريَّةُ:

1. وذلك أنَّ النَّاس كانوا يفعلونه في الجاهليَّة وفي زمن النَّبيِّ ﷺ، ولم يُنكِرْ عليهم النبيُّ ﷺ.

فعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ صَلَّى يَومَ العيدِ رَكعَتَينِ، لم يُصَلِّ قَبلَهُما، ولا بَعدَهما، ثُمَّ أَتَى النِّسَاءَ ـ ومعه بلال ـ فَأَمَرَهُنَّ بالصَّدَقَة، فَجَعَلَت المرأةُ تُلقي قُرطَهَا[7].

وفي رواية عند البخاري: «فَجَعَلَ النِّسَاءُ يُشِرنَ إلى آذانِهِنَّ وحُلُوقِهِنَّ»[8].

ووجه الدَّلالة من الحديث أنَّ النبيَّ ﷺ رأى عندهنَّ القُرطَ، وهو حَلَقَةٌ لا تُلبَسُ إلاَّ في الأُذُنِ المثقُوبة، ولم يُنكِرْ عَلَيهِنَّ فعلَه، ولو كان محرَّمـاً لبَيَّنَهُ ﷺ[9]؛ لأنَّ «**تَأخيرَ البَيَانِ عَن وَقتِ الحَاجَةِ مُمتَنِعٌ**»[10].

وأُجِيبَ عنه من وجهين:

الأوَّل: وبه أجاب شمس الدِّين الرَّمليُّ رحمه الله من الشَّافعية، وهو أنَّ سكوتَ النَّبيِّ ﷺ على إنكارِ الثَّقب هنا لا يلزم منه الجَوَاز؛ لأنَّهُ ليس فيه تأخيرٌ للبيانِ عن وقته، إلاَّ لو سُئِلَ الرسولُ ﷺ عن حكم التَّثقيب، أو رأى من يفعلُه أمامَه، أو بلغَه ذلك، فهذا هو وقتُ الحاجة، وأمَّا أمرٌ وَقَعَ قبلَ مجيءِ الشَّرعِ وانقضى، ولم يُعلَمْ هل فُعِلَ بعدُ أو لا، فلا حاجةَ لبيانه[11].

وأَفصَحَ الحافظُ ابنُ حجر رحمه الله عن الاعتراضِ الآنف بقوله: «ويجوزُ أن تكون آذانُهنَّ ثُقِبَت قبل مجيءِ الشَّرعِ، «**فَيُغتَفَرُ في الدَّوَامِ مَا لا يُغتَفَرُ في الابتِدَاءِ**»[12]»[13].

يعني: أنَّ النَّبيَّ ﷺ تَرَكَ الإنكار هنا؛ لأنَّ هذا الثَّقبَ موجودٌ من قبلُ، ولم يُفعل أمامه ابتداءً حتَّى يَجِبَ عليه البيانُ.

ويمكن تعقُّبُ هذا الجوابِ بأنَّ النَّبيَّ ﷺ ترك إنكارَ الثَّقبِ الموجودِ قبل مجيءِ الشَّرع، كما لم يثبت عنه أيضا إنكارُ الثَّقبِ الَّذي حَصَلَ بَعد مَجيءِ الشَّرع، الَّذي يَفعَلُهُ النَّاسُ ابتداءً في زَمَنِ التَّشريعِ، ولو كان مُحرَّما لَنَهَى عن الثَّقبِ الجديدِ، مثلما أنكرَ جملةً من العاداتِ الجاهليَّة، فلمَّا سكت عنه مع وجود من يفعله، دلَّ ذلك على الإقرار.

الثَّاني: وبه أجاب الحافظُ ابنُ حَجَر، وهو أنَّه لا يلزم من تحلِّيهنَّ بالقُرط وضعُه في ثُقب الأُذُن، بل يجوز أن يُشبَّك الرَّأسُ بسلسلة لطيفة حتَّى تُحاذيَ الأذنَ، وتنزلَ عنها، فيظهر القرط كأنَّه معلَّق في الأذن[14].

ويمكن تعقُّبه بأنَّ هذا الاحتمالَ بعيدٌ، والعربُ كانت نساؤهم تَتَحلَّى بالقرط في الأذن، يُؤَيِّدُ ذلك ما جاء في بعض روايات الحديث من أنَّهُنَّ كُنَّ يَهوِينَ إلى آذانِهِنَّ وحُلُوقِهِنَّ ويُشِرنَ إليها، إشارةً منهُنَّ ـ رضي الله عنهن ـ إلى موضعِ الحليِّ الَّتي يُرِدنَ التَّصَدُّقَ بها.

2. حديث أُمِّ زَرْعٍ، وقد قال النَّبيُّ ﷺ فيه لعائشةَ: «**كُنتُ لَكِ كَأَبي زَرْعٍ لأُمِّ زَرْعٍ**»، مع قولها في وصف زوجها أبي زرع: «أبو زرع وما أبو زرع، أَنَاسَ من حُليٍّ أُذُنَيَّ»[15] أي ملأها من الحليِّ حتَّى صار يَنُوسُ فيها، أي: يتحرَّك ويجُولُ[16].

وأجاب عنه المانعون بمثل جوابهم عن الحديث الأوَّل.

واستدلُّوا من أقوال الصَّحابة: بما رُوِي عن ابنِ عبَّاس رضي الله عنهما أنَّه قال: «سَبْعَةٌ مِنَ السُّنَّةِ في الصَّبِيِّ يومَ السَّابع: يُسمَّى، ويُختَنُ، ويُماطُ عنهُ الأذى، وتُثقَبُ أذنُه، ويُعقُّ عنه، ويُحلقُ رأسُه، ويُلطَّخُ بدم عقيقَتِه، ويُتصدَّقُ بوزن شعره في رأسه ذهباً أو فضة»[17].

ووجه الاستدلال[18] واضحٌ وصريحٌ في جوازِ ثقبِ أذنِ الصَّبيِّ،

(7) «البخاري» (5883)، «مسلم» (884).
(8) «البخاري» (7325).
(9) «البحر الرَّائق» لابن نجيم (554/8)، «تبيين الحقائق» للزَّيلعي (227/6)، «تحفة المودود بأحكام المولود» لابن القيم (ص209).
(10) نقل جمعٌ من الأصوليِّين الإجماعَ على أنَّه لا يجوز تأخير البيان عن وقت الحاجة، انظر: «المهذَّب في علم أصول الفقه المقارن» للدُّكتور عبد الكريم النَّملة (1264/3).
(11) «نهاية المحتاج» للرَّملي (34/8).
(12) راجع معنى هذه القاعدة وتطبيقاتها في: «موسوعة القواعد الفقهيَّة» لمحمَّد صدقي البورنو (404/12 ـ 407).
(13) «فتح الباري» (331/10).
(14) «المصدر السَّابق» (331/10).
(15) «البخاري» (5189)، «مسلم» (2448).
(16) «تحفة المودود بأحكام المولود» لابن القيم (ص209).
(17) أخرجه الطَّبراني في «المعجم الأوسط» (562)، وضعَّفه العلاَّمة الألباني في «الضَّعيفة» (5432).
(18) «نهاية المحتاج» للرَّملي (34/8)، «فتح الباري» للحافظ ابن حجر (331/10).

فالصَّبيَّة أولى، إذ «قَولُ الصَّحَابِيِّ: «مِنَ السُّنَّةِ كَذَا...» فِي حُكمِ المرفُوعِ إلَى النَّبِيِّ ﷺ»[19].

ويجاب بأنَّ هذا الحديث ضعيفٌ، وإسناده واه، ولا يجوز إثباتُ السُّنَّة بمثله، لا سيَّما وفي مَتنه جُملةٌ مُستنكَرَة، وهي أنه «يُلطِّخُ رأسُه بدم عقيقته»، فإنَّ هذا التَّلطيخ كان في الجاهليَّة، فلمَّا جاء الإسلامُ أمر النَّبيُّ ﷺ أن يَجعلَ مكانَ الدَّم خلوقًا - أي: طيبًا - [20].

واحتجُّوا من المصلحة: بأنَّ ثقبَ أذنِ الصبيَّة فيه منفعة الزِّينة[21]، قال العلاَّمة ابن القيِّم رحمه الله: «الأنثى محتاجةٌ للحلية، فثقبُ الأذن مصلحةٌ في حقِّها، بخلاف الصَّبيِّ»[22].

(19) اختلف الأصوليُّون في المسألة على مذهبين، والحقُّ ما ذهب إليه الجمهور مِنْ أنَّ قول الصَّحابي: (من السُّنَّة كذا) يُحملُ على سنَّة النَّبيِّ ﷺ، وله حكم المرفوع. انظر: «المهذَّب في علم أصول الفقه المقارن» للدُّكتور عبد الكريم النَّملة (758/2، 759).
(20) «سلسلة الأحاديث الضَّعيفة» للألباني (718/11).
(21) «تبيين الحقائق» للزَّيلعي (227/6).
(22) « تحفة المودود بأحكام المولود» لابن القيِّم (ص209).



المذهب الثَّاني ـ الحرمة:

فلا يجوز ثقب الأذن للزِّينة، وإليه ذهب بعض الشَّافعية، كالغزالي، وصرَّح بأنَّ الاستئجارَ عليه غيرُ صحيح، والأجرةُ المأخوذةُ عليه حرام، بل ذهب الشربيني من الشَّافعية إلى وجوب القصاص على المُثقِب، وإلى القول بالمنع مَالَ الحافظ ابنُ حجر، ومن الحنابلة قطع ابن الجوزي بتحريمه، وألحقه ابن عقيل بحكم الوشم، وهو التَّحريم[23].

واستدلُّوا على ذلك بما يأتي:

قالوا: تثقيب الأذن جَرْحٌ لم تدعُ إليه ضرورةٌ، إلاَّ أن يثبتَ فيه شيءٌ من جهة الشَّرع، ولم يبلغنا ذلك[24].

ويجاب عليه بأنَّ ثقبَ الأذنِ دَعَت إليه الحاجةُ لا الضَّرورة، وهي حاجة النِّساء للزِّينة، و«**الحاجة تُنزَّلُ منزلة الضَّرورة عامَّةً كانت أو خاصَّةً**»[25].

كما لا يُسَلَّمُ قولُهُم: «لم يَبلُغنا في ذلك شيء»، وقد بلغنا أنَّ النَّبيَّ ﷺ أقرَّه، ولم يُنكره.

وقالوا: ثَقبُ أُذُنِ الصَّغيرة تعذيبٌ بلا فائدة[26].

ويجاب عليه بأنَّه تعذيبٌ يسير، وألَمُه وأذاه قليل، ولا سيما إذا كان ذلك في حال الصِّغر، صار برؤُه سريعًا، ولا يُسلَّم قولُهم: «لا فائدة فيه»؛ لأنَّ المرأةَ تحتاجُه للتجمُّل، الَّذي هو مُكمِّل لها[27].

القياس: قياسُ حرمةِ ثقبِ أذنِ البنتِ على حرمةِ قطعِ آذانِ الأنعام: وذلك في إخباره تعالى عن إبليس - عياذًا بالله منه - أنَّه قال: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ [النساء: 119]، أي: يقطعونها[28].

ووجه الدَّلالة من الآية أنَّها تدلُّ على أنَّ قطعَ أذنِ الحيوان وشقَّها وثقبَها من أمر الشَّيطان، فإنَّ البتكَ هو القطع، وثقبُ أذن البنت قطعٌ لها، فهو مُلحقٌ ومقيسٌ على قطع أذن الأنعام،

(23) «إحياء علوم الدِّين» للغزالي (341/2)، «مغني المحتاج» للشَّربيني (394/1)، «الإنصاف» للمرداوي (98/1)، «الفروع» لابن مفلح (158/1)، «فتح الباري» للحافظ ابن حجر (331/10).
(24) «إحياء علوم الدِّين» للغزالي (341/2).
(25) راجع معنى القاعدة وصيغها وتطبيقاتها في «موسوعة القواعد الفقهيَّة» لمحمد صدقي البورنو: (67/3-69).
(26) «مغني المحتاج» للشَّربيني (394/1).
(27) «فتاوى نور على الدَّرب» للشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين: قرص صادر عن مؤسَّسة ابن عثيمين الخيرية - 1427هـ.
(28) «لسان العرب»، مادَّة: (بتك): (10/ 395).

وكلاهما حرام[29].

وأجاب العلاَّمة ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ عن هذا القياس بقوله: «هذا مـن أفسدِ القياس، فإنَّ الَّـذي أمرهم به الشَّيطـانُ، أنَّهم كانوا إذا ولـدت لهم النَّاقة خمسة أبْطُنٍ، فكان البطنُ السَّادسُ ذكرًا، شَقُّـوا أذنَ النَّاقة، وحرَّموا ركوبَهـا، والانتفاعَ بها، ولم تُطردْ عن مـاء، ولا عن مرعى، وقالوا: هذه بَحِيرةٌ، فشرع لهم الشَّيطان في ذلك شريعةً من عنده، فأين هذا من نَخْسِ أذن الصَّبيَّة؛ لِيُوضعَ فيها الحلية، الَّتي أباح الله لها أن تتحلَّى بها»[30].

. يمكـن أن يُستـدلَّ لهم بأنَّ: ثقـبَ الأُذُن فيه تغييرٌ لخلق الله سبحانَه، وهو محرَّمٌ.

فيُجابُ عنه بـأنَّ تغييرَ خلقِ الله ليس مذمومًا على الإطلاق، ولكـن منه ما هو ممدوح، ومنه ما هو مذموم، وممدوحه ما أذن الشَّرعُ فيه.

قال محمَّـد الطَّاهر بنُ عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: «وليـس من تغيير خلق الله التَّصـرُّف في المخلوقـات بما أذنَ الله فيـه، ولا ما يدخل في معنـى الحُسْنِ؛ فـإنَّ الختان مـن تغيير خلق الله، ولكنَّـه لفوائدَ صحيَّـة، وكذلك حلق الشَّعر لفائدة دفع بعضِ الأضرار، وتقليم الأظفار لفائدة تيسير العمل بالأيدي، وكذلك ثقب الآذان للنِّساء لوضع الأقراط والتَّزيُّن»[31].

سبب الخلاف والقول المختار:

سبـب اختلاف العلمـاء في هذه المسألة أنَّه لم يرد نصٌّ قوليٌّ أو فعليٌّ صريحٌ وصحيحٌ في محلِّ النِّزاع.

فمـن اعتبر سكوت النَّبـيِّ ﷺ في موضع الحاجة إلى البيان بيانًـا، وأنَّ ثقـبَ أذنِ البنت لأجل التَّزيُّن حاجـة، وحرمانها من هذه المصلحة مفسدة أعظم من مفسدة الجرح والألم، ذهب إلى الجواز.

ومـن رأى أنَّ سكوته ﷺ في هذه الحـال لا يُعدُّ بيانًا؛ بسبب أنَّـه لم يُشاهدْ مباشرة الثَّقب، حتَّى يكون إقرارًا، ورأى أنَّ الثَّقب مفسـدة أعظم مـن مفسدة حرمان المرأة مـن التَّزين في الأذن، ذهب إلى الحرمة.

(29) «تحفة المودود بأحكام المولود» لابن القيِّم (ص109).
(30) المصدر السَّابق (ص110).
(31) «التَّحرير والتَّنوير» (4/258).



والقول المختار الَّـذي تُسنِـدُه الأدلَّـة هو مذهـبُ الجمهورِ القائلـين بجـواز ثَقبِ أذنِ البنـت لأجل التَّزيُّـن والتَّجمُّل، وذلك اعتمـادًا علـى قوَّة الإقـرار النَّبويِّ لهذه العـادة القديمة، كما في حديث ابـن عبَّاسٍ، وحديث أمِّ زرع، وهو ما اختاره الشَّيخ محمد ابن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ من المعاصرين، وأفتت به اللَّجنة الدَّائمة للإفتاء[32].

وفي المقابـل فـإنَّ أدلَّـةَ المانعـين ضعيفـةٌ، لا تُسعفهـم للقول بالتَّحريم:

فقولهم: «إنَّ الثَّقبَ تعذيبٌ»، مردود بأنَّه يسير، وبُرؤُهُ سريعٌ، والمفسـدةُ الحاصلـة بمنعه، أعظم من مفسدة الجَـرْح، فتُرتَكبُ أخفُّ المفسدتين، درءا للكبرى.

وأمَّـا قياسُ ثقبِ الأذنِ علـى حرمة بتـك آذان الأنعام، فهو قيـاس مع الفارق، كما أنَّه معارض بالسُّنَّة التَّقريريَّة الثَّابتة عن النَّبيِّ ﷺ، . والله سبحانه أعلم ..

■ ■ ■

فـإذا تقرَّرَ جواز ثقـبِ أُذنِ الصَّغيرةِ لأجـلِ التَّزيُّنِ، فينبغي الإشارةُ هنا إلى مسائلَ، هي:

(32) «فتاوى نور على الدَّرب» للشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين: قرص صادر عن مؤسَّسة ابن عثيمين الخيريَّة ـ 1427هـ، « فتاوى اللَّجنة الدَّائمة للإفتاء»: فتوى (4084)، (17/140).

المسألة الأولى: في بعض المناطق تَثقُبُ النِّساءُ الأنفَ مع الأذن من أجل تعليق الحلية، فهل هذه الصُّورة مشروعة كثقب الأذنِ، أم أنَّها تخالفها في الحكم؟

لا شكَّ أنَّ ثَقبَ الأنف من أجل تعليق الحلية محرَّم إذا ترتَّب عليه ضررٌ يلحق بالفاعل، أو صَاحَبَه تشبُّهٌ بالكافرات أو ببعض الطُّقوسِ الهندوسيَّة الوثنيَّة الَّتي تقدِّس مثل هذه الزِّينة.

أمَّا إذا خلا من تلك المحاذير، فقد اختلف الفقهاء في حكمه:

فذهب بعض الشَّافعيَّة إلى تحريمه منهم أحمد بن حجر الهيتمي وغيره، بحجَّة أنَّه لا زينة فيه، يُغتفر لأجلها الثَّقب، ولأنَّه أيضًا مخالف للعرف العامِّ[33].

وأجازه ابن عابدين من الحنفيَّة قياسًا على ثقب الأذنِ للقرط، بشرط أن يكون ممَّا يَتَزَيَّنُ به النِّساء في العادة[34].

أمَّا المُعاصرون: فقد قال الشَّيخ محمَّد بن صالح العثيمين: «فيه مُثلة وتشويه للخلقة فيما نرى، ولعلَّ غيرَنا لا يرى ذلك، فإذا كانت المرأة في بلد يُعَدُّ تحليةُ الأنف فيه زينةً وتجمُّلاً فلا بأس بثقبِ الأنف لتعليق الحلية عليه»[35]، وأفتت اللَّجنة الدَّائمة للإفتاء بجوازه، لأنَّه للزِّينة، وليس للإيذاء أو تغيير خلق الله تعالى[36].

المسألة الثَّانية: هل يجوز ثقب الأذن من الأعلى؟ وهل الثَّقبُ المباحُ خاصٌّ بأسفلِ الأذُنِ؟

الظَّاهر أنَّ إباحةَ ثقب الأذن ليست مخصوصة بمكان معيَّن، وإن كان الفقهاء يصرِّحون بأنَّ الثَّقب في شحمة الأذن، جريًا منهم على العرف السَّائد لا تخصيصًا لهذا الموضع.

وعليه فثقب الأذن جائز في أيِّ موضع، إذا عدَّه النَّاس زينةً، واستقرَّت عادتُهم على فعله.

المسألة الثَّالثة: من العوائد الَّتي بدأت تروج بين نساءِ مجتمعنا أن لا تكتفي المرأة بثُقبٍ واحدٍ في الأذن، بل تتعدَّاه إلى ثقبين أو أكثر، تُعلِّق في كل ثقب قرطا، فهل هذا العمل مشروع؟

إذا خلا هذا الفعل من الضَّرر والتَّشبُّه بالكافرات والإسراف والتَّبذير، فهو موكول إلى أعراف النَّاس وعاداتهم إقرارًا أو إنكارًا؛ لأنَّه إذا جاز ثقبُ الأنف مع أنَّه عضوٌ مغايرٌ للأذن، فإحداث ثقبٍ ثانٍ في الأذن أولى بالجواز، والله سبحانه وتعالى أعلم.

المسألة الخامسة: أَوَّلُ من ثُقبت أُذُنُها من النِّساء هَاجَرُ أمُّ إسماعيل عليهما السَّلام:

ذكر أبو هلال العسكري في كتابه «الأوائل» وابن قيِّم الجوزية في «تحفة المودود بأحكام المولود» أنَّ أوَّل امرأة ثُقبت أُذُنُها هي هَاجَر أمُّ إسماعيل[37]، استدلالاً بما روي عن عليِّ بنِ أبي طالب رضي الله عنه: كانت هَاجَرُ لسارةَ، فغضبت عليها يوما، فقالت سارةُ: والله لأُغَيِّرَنَّ منها ثلاثةَ أعضاء، فخشي إبراهيمُ أن تجدعَها، أو تخرمَ أذنيها، فقال لها: ألا أدلُّك على ما تبرِّين به يمينك، تَخفضينَهَا ـ تختنينها ـ، وتثقبين أذنيها، فكانت هاجرُ أوَّل من خُفضت، وثُقبت أذناها فجعلت فيها قرطين، فقالت سارة: ما أرى هذا زادها إلاَّ حسنًا[38].

واعتمادًا على هذا الأثر نقل الحافظُ ابن كثير رحمه الله قول السُّهيلي: «فكانت هاجرُ أوَّلَ من اختُتِن من النِّساء، وأوَّلَ من ثُقبَت أذنُها منهنَّ، وأوَّلَ من طَوَّلت ذيلَها»[39].



(33) «تحفة المحتاج» لابن حجر الهيتمي (2/ 127)، وانظر: «تحفة الحبيب على شرح الخطيب» للبجيرمي (2/508).
(34) «حاشية ابن عابدين» (6/ 420).
(35) «مجموع فتاوى ابن عثيمين» (11/السُّؤال 69).
(36) «فتاوى اللَّجنة الدَّائمة للإفتاء» (24/36).
(37) «تحفة المودود» لابن القيِّم (ص190).
(38) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (8277. الرُّشد)، وابن عبد الحكم في «فتوح مصر وأخبارها» (1/ 14)، وابن عساكر في: «تاريخ دمشق» (69/186)، وحسَّن إسناده محقِّقُ «شعب الإيمان».
(39) «قصص الأنبياء» لابن كثير (ص202).



دور الأغنياء في الدعوة إلى الله ونشر دينه

د. رضا بوشامة
أستاذ الحديث بجامعة الأمير عبد القادر ـ قسنطينة

إنَّ الدَّعـوة إلى الله عـزَّ وجلَّ أجلُّ أعمال الخـير الَّتي أرشد إليهـا ربُّنـا في كتابه، وهـي وظيفة الرُّسـل وأتباعهـم، قال الله تعـالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: 125]، وقـال تعـالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ﴾ [الشورى: 15]، قـال ابن كثير في تفسير هذه الآية (195/7): «أي فللَّـذي أوحينـا إليك من الدِّيـن الَّذي وصَّينا بـه جميع المرسلين قبلك أصحاب الشَّرائع الكبار المتَّبعة كأولي العزم وغيرهم فادع النَّاس إليه»، وقال تعـالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرعد: 36]، أي إلى سبيلـه أدعو النَّاس، كما قال ابن كثـير أيضًـا (467/4)، والآيات في الحثِّ على الدَّعوة إلى الله والتَّرغيب في ذلك وبيان ما أعدَّ الله للدُّعاة إليه من الثَّواب والأجر والرِّفعة في الدُّنيا والآخرة كثيرةٌ جدًّا.

ولا تقتصـر الدَّعـوة إلى الله ببيـان سبيـل الله بالتَّعليـم والتَّدريـس والموعظة، بل الأمر أكبر من ذلك، فكلُّ من كان سببًا في إيصال الخير والنَّفع إلى النَّاس فهو من الدُّعاة إلى الله، سواء كان ذلك بعلمه أم بماله أم بجاهه أم بأيِّ طريق من طرق الخير المشروعـة، وقد قال الرَّسول الكريم عليـه صلوات الله وسلامه: «**مَـن دَلَّ علَـى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِه**»[1]، والدَّال على الخير لا يقتصر على من علَّـم غيره دينَ الله وبيَّن له أحكام الشَّريعة، بل يتعـدَّاه إلى كلِّ من دلَّ غيره على خير، فمن تصدَّق في سبيل الله فهو دالٌّ على خير، ومن أرشد غيره إلى شيءٍ من الخير فهو دالٌّ عليه، روى مسلـم في «صحيحه» (1017) عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قـال: «جاء ناس مـن الأعراب إلى رسول الله ﷺ عليهم الصُّـوف، فرأى سوءَ حالهـم قد أصابتهم حاجـة، فحثَّ النَّاسَ على الصَّدقة فأبطـؤوا عنه، حتَّى رُؤِي ذلك في وجهه، قال: ثمَّ إنَّ رجلاً من الأنصار جاء بصُـرَّة من وَرِق، ثمَّ جاء آخر، ثمَّ تتابعوا حتَّـى عُرف السُّرور في وجهه فقـال رسول الله ﷺ: «**مَن سَنَّ في الإِسْلَامِ سُنَّـةً حَسَنَةً فَعُمِلَ بِهَا بَعْدَهُ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَـا وَلاَ يَنْقُصُ مِـنْ أُجُورِهِم شَيْءٌ، وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلَامِ سُنَّةً سَيِّئَـةً فَعُمِـلَ بِهَـا بَعْدَهُ كُتِبَ عَلَيْـهِ مِثْـلُ وِزْرِ مَنْ عَمِـلَ بِهَا، وَلاَ يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ**».

فهـذا الرَّجل الأنصـاري رضي الله عنه سنَّ سنَّة حسنـةً بأن تقدَّم غـيرَه ودلَّهـم على طريق من طرق الخير، فجـاء بصُرَّة من ورِق ـ وهـي الفضَّة ـ ووضعها بين يـدي رسول الله ﷺ فلمَّا رآه النَّاس ورأوا استبشار النَّبيِّ ﷺ بصنيعه تتابعوا في الصَّدقة، وجاؤوا بما يسَّـره لهم ربُّهم مـن الصَّدقات، فكافأه الله عزَّ وجـلَّ بأن كتَب له أجـرَه وأجر مَن تبعـه في صدقته من غير أن ينقص من أجورهم شيئٌ، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

(1) رواه مسلم في «صحيحه» (1893) عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه.

والمـال نعمة يُنعم بها الله على عبـده، استرعاه عليه، فينظر مـاذا يعمل فيما استرعاه، وسيسأله يوم القيامة عنه، فلم يجعله بين يديـه ليتصرَّف فيه كما شاء وأراد، بـل أوجب عليه واجباتٍ وفرضَ عليه صدقـات، وحثَّه على إنفاقه في طـرق الخير وسبلِ الفـلاح، إذ المال مال الله والعبد عبـده، فينبغي للعبد الذَّليل أن ينظر فيمـا يضعه وأين ينفقه، روى التِّرمـذي (2417) عن أبي بـرزة الأسلمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسأَلَ عَنْ عُمُرِه فيما أَفْنَاهُ، وَعَنْ علمِه فِيمَا فَعَلَ، وَعَنْ مَالِه مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِه فِيمَا أَبْلاَهُ**».

وعن أبي سعيد الخدري عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**إِنَّ الدُّنيَا حُلْوَةٌ خَضِرَة، وَإِنَّ الله مُسْتَخْلِفُكُم فِيهَا فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُون**»[2].

وعـن أبي سعيد الخدري مرفوعـا: «**وَيلٌ للمُكْثِرِينَ إلاَّ من قَـالَ بالمَـالِ هَكذَا وهَكـذَا وهَكذَا وهَكـذَا؛ أَرْبَع: عَـنْ يَمِينِه وعَن شِمَالِه ومِن قُدَّامه ومِنْ وَرَائِه**»[3].

والمسلـم النَّاصـح لنفسه يستعمل المال في حقِّـه، «**فنعمَ المَالُ الصَّالـحُ للمَـرْءِ الصَّالـحِ**» كمـا قـال رسـول الله ﷺ فيما رواه البخاري في «الأدب المفرد» (299).

والمؤمـن الغنـيُّ أكثر أجـرًا من المؤمـن الفقـير إذا استعمل مالَـه فيما يرضي الله عزَّ وجـلَّ، وأنفقه في سبيله، روى مسلم في «صحيحـه» (1006) عن أبـي ذر: «أنَّ ناسا مـن أصحاب النَّبيِّ ﷺ قالـوا للنبي ﷺ: يا رسول الله! ذهـب أهل الدُّثور بالأجور، يُصلُّـون كما نصلِّي، ويصومون كمـا نصوم، ويتصدَّقون بفضول أموالهـم. قال: «**أَوَلَيسَ قَدْ جَعَـلَ الله لَكُمْ مَا تَصَدَّقُون؟ إنَّ بكُلِّ تَسْبِيحَة صَدَقَة، وَكُلِّ تَكْبِيرَة صَدَقَة، وكُلِّ تَحْمِيدَة صَدَقَة، وكُلِّ تَهْلِيلَـة صَدَقَـة، وأَمْرٌ بالمَعْرُوف صَدَقَة، وَنَهيٌ عَن مُنْكَر صَدَقَة، وَفي بُضعِ أَحَدكُم صَدَقَة**»، قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدُنا شهوتَه ويكـون له فيها أجر؟ قال: «**أَرَأَيْتُم لَو وَضَعَهَا في حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْه فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلكَ إِذَا وَضَعَهَا في الحَلاَلِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**»، وفي رواية عـن أبي هريرة رضي الله عنه: «فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالـوا: سمـع إخواننا أهـل الأموال بما فعلنـا ففعلوا مثله.

فقال رسول الله ﷺ: «**ذَلكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيه مَنْ يَشَاءُ**»[4].

وقد كان رسول الله ﷺ يحثُّ أغنياء الصَّحابة على التَّصدُّق والإنفـاق خاصَّة في أوقات العسـرة والضِّيق وحاجة المسلمين إلى أموال ليقوموا بتبليغ دين الله ويجاهدوا في سبيله، روى التِّرمذي في «جامعه» (3703) عن ثُمامة بن حَزْن القُشَيْري قال: «شهدت الدَّار حين أشرف عليهم عثمان فقال: ائتوني بصاحبيكم اللَّذَين ألَّباكم عليَّ، قال: فجيء بهما فكأنَّهما جملان أو كأنَّهما حماران، قـال: فأشرف عليهم عثمان فقـال: أنشدكم بالله والإسلام! هل تعملـون أنَّ رسـول الله ﷺ قدم المدينة وليس بهـا ماء يُستعذَب غـير بئر رومة، فقال: «**مَن يَشْتَري بئْرَ رُومَـة فَيَجْعَلَ دَلْوَهُ مَنْ دلاَء المُسْلمـينَ بخَيْـرٍ لَـهُ منْهَـا في الجَنَّـة**»، فاشتريتها من صلب مالي فأنتم اليوم تمنعوني أن أشرب منها حتَّى أشرب ماء البحر، قالـوا: اللَّهمَّ نعم، قـال أنشدكم بالله والإسلام! هـل تعلمون أنَّ المسجد ضاق بأهله فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ يَشْتَرِي بُقْعَةَ آلِ فُلان فَيَزِيدَهَا في المَسْجِد بخَيْرٍ منْهَا في الجَنَّة؟**» فاشتريتها من صلـب مالي، فأنتم اليوم تمنعـوني أن أصلِّي فيها ركعتين، قالوا: اللَّهـمَّ نعم، قال: أنشدكم بـالله والإسلام هل تعلمون أنِّي جهَّزت جيشَ العسرة من مالي؟ قالوا: اللَّهمَّ نعم، ثمَّ قال: أنشدكم بالله والإسـلام! هـل تعلمـون أنَّ رسـول الله ﷺ كان علـى ثبير مكة ومعـه أبو بكر و عمر وأنا، فتحرَّك الجبل حتَّى تساقطت حجارته بالحضيض، قـال: فركضـه برجله وقـال: «**اسْكُنْ ثَبِـير فَإنَّمَا عَلَيْكَ نَبيٌّ وَصدِّيقٌ وَشَهِيدَان**»؟ قالوا: اللَّهمَّ نعم، قال: الله أكبر شهدوا لي وربِّ الكعبة أنِّي شهيد ثلاثا».

(2) رواه مسلم (2742).

(3) رواه ابن ماجه (4129)، «الصحيحة» (2412).

(4) رواه مسلم (595).



مسائل منهجية

هكـذا كان صحابـة رسـول الله ﷺ يتسابقـون إلى الخـير والإنفاق في سبيل الله، لما آتاهم الله تعالى من مال وعلم وجاه.

فالدَّعوة إلى الله لا يمكن أن تقوم فقط بالعالم الرَّبَّاني الَّذي يربِّـي النَّـاسـ على الدِّيـن الصَّحيح، بل لا بدَّ من عمـل الأغنياء وقيامهـم بالدَّعـوة إلى الله بأموالهـم وما آتاهـم الله تعالى من فضلـه، فالعـالم بعلمِـه، والغنيُّ بمالـه، فتتَّحد القوَّتـان وتصيرُ بمثابة الجناحيْن تسمو بهما إلى الكمال.

روى ابن أبي الدُّنيا في كتابه «إصلاح المال» (58) عن محمد ابن المنكدر أنَّه قال: «نِعم العون على الدِّين: الغنى».

وروى أيضًـا (79) عـن سفيـان الثَّوري قال: «المـال في هذا الزَّمان سلاح المؤمن».

فيجـب علـى الأغنياء أن يدركـوا تمـام الإدراك أنَّ هـذا الدِّيـن دينهـم، والأمـر أمرهـم، وهـم مطالبون بالدَّعوة إلى الله وتبليـغ دينه بمـا أوتوا من مـال وجـاه، يقـول الشَّيخ محمَّد البشير الإبراهيمي رَحِمَهُ اللهُ: «... إنَّمـا نلـوم أنفسنـا ونلـوم قومَنا على التَّفريط والإضاعة وعلى إهمال الدَّعوة لدينهم والعرْض لجماله ومحاسنـه، وعلـى التَّخاذل في وجه هـذه القوَّة المتألِّبـة المتكالبة عليهـم وعلى دينهم، حتَّى أصبح سكوتُنـا وإهمالنا عونًا لها على هـدم ديننا ومحو فضائلنـا والقضاء على مقوِّماتنـا، **فأغنياؤنا ممسكون عـن البـذل في سبيل الدَّعـوة إلى دينهـم، وكأنَّ الأمرَ لا يعنيهـم، وكأنَّ الدِّين ليس دينهم، وكأنَّهم لا يعلمون أنَّ هذا التَّكالـب إن استمـرَّ لا يُبقي لهم عرضًا ولا مالاً ولا متاعًا**، وقد بلغـت الغفلـة ببعضهم أن يُعـين الجمعيَّات التَّبشيريَّـة المسيحيَّة بماله، وكأنَّه يُقلِّد عدوَّه سلاحاً قتَّالاً يقتل به دينَه وقومه، ولم يبق عليه من فضائح الجهل إلاَّ أن يقول لعدوِّه: اقتلني به.

إنَّنا لا نكون مسلمـين حقًّا ولا نستطيع أن ندفع هذه الجيوش المغـيرة علينا وعلـى ديننا تارة باسـم العلم وتـارة باسم الخير والإحسـان وأخرى باسم الرَّحمة بالإنسـان إلاَّ إذا علمنا ما يُراد بنـا، وفقهنـا الغايات لهـذه الغـارَّات، وتحدَّيناها بجميـع قوانا المعنويـة والمادِّيَّة وحشدها في ميدان واحد هو ميدان الدِّفاع عن حياتنـا الرُّوحية والمادِّيَّة، **ولا يتمُّ لهذا الشَّأن تمام إلاَّ إذا أقمنا الدَّعوة إلى الله وإلى دينه الإسلام على أساس قويٍّ من أحجار العالم الرَّبانيِّ والخطيب الَّذي يتكلم بقلبه لا بلسانه والكاتب الَّـذي يكتـب بقلمه مـا يمليه عقلـه والغنيِّ المستهـين بماله في سبيل دينه**، ثمَّ وجَّهنا هذه الدَّعوة إلى القريب قبل الغريب، إلى المسلـم الضَّالِّ قبل الأجنبيِّ، فإذا فعلـت الدَّعوة فعلَها في نفوس المسلمين وأرجعتهم إلى ربِّهم فاتَّصلوا به فتمسَّكوا بكتابه وهدي نبيِّـه وتمجَّـدوا بتاريخـه وأمجاده وفضائله ولسانه كنَّـا قلَّدناهـم سلاحًـا لا يفـلّ، وأسبغنـا عليهـم حصانـة روحيَّـة لا تؤثِّـر عليهـا هـذه الدِّعايـات المضلَّـة، وحصانـة أخرى مادِّيَّـة ملازمـة لهـا لا تهزمهـا الجمـوع المجمَّعة ولـو كان بعضُهـا لبعض ظهيرًا». [الآثار (286/4)].



وللغنـيِّ أن يسـأل مـا هي وجوه البـرِّ والخير الَّتـي يمكن أن يشـارك فيها لينـال أجر الدُّعاة والدَّالِّين علـى الخير، ولعلَّ هذا التَّسـاؤل هـو ـ في الغالب ـ الحاجز بين هـؤلاء وبين فعلهم للخير، وذلك لجهلهـم بمصلحة الدَّعوة وحاجتها، وبُعدهم عن ساحتها جعلهم يحجمون ويخافون أن ينفقوا أموالهم فيما لا نفع فيه يعود علـى الدَّعوة وعليهم، ولا شـكَّ أنَّ على الغنـيِّ أن يتحرَّى معرفة طرق الخير ليسلم له ماله من أن يضعه فيما لا يرضي الله تعالى ويعينه على ذلك سؤاله أهل العلم ليعرِّفوه بتلك السُّبل، ويوضحوا له المعالم والطُّرق.

وسبل الإنفاق كثيرةٌ جـدًّا، لا يمكن استقصاؤها، لكن كلُّ ما

يخدم الدَّعوة الإسلاميَّة الصَّحيحة ويكون له أثر في تعريف النَّاس بدينهم وربِّهم فهو من أبواب الخير وسبله، ولا بأس بضرب أمثلة على تلك الوجوه، فمن ذلك:

.بناء المدارس القرآنيَّة والعناية بها وتشييدها واختيار المدرِّس النَّاصح الكفيل بتدريس القرآن على الوجه المطلوب ودعمه، وذلك أنَّ مثل تلك المدارس تقوم على تحفيظ كلام الله تعالى وتلاوته، وتعلُّم أحكام شرع الله تعالى وسنَّة نبيِّه، فهذا أدعى أن يهتَمَّ ويعتنى بها.

.طباعة الكتب والرَّسائل والمجلاَّت الإصلاحيَّة وتوزيعها على الطَّلبة والمثقَّفين وسائر شرائح المجتمع، وهذا مجال واسع ورحب، وجدير بالأغنياء العناية به، فكم هدى الله من ضالٍّ بقراءة كتاب في المعتقد الصَّحيح وأخرجه من ظلمات الشِّرك إلى نور الإيمان والتَّوحيد، وكم من عاص رجع إلى الله وعاد بتصفُّحه لرسالة في الأخلاق والقيم، وقد تنافس المتنافسون في هذا الباب أيما تنافس، وذهب أهل الدُّثور بالأجور، إذ ترى في بعض المجتمعات الإسلاميَّة آلاف الكتب إن لم نقل ملايين النُّسخ توزَّع بالمجَّان، مكتوبًا على غلافها (طبع على نفقة بعض المحسنين)، والقارئ لهذه العبارة يحقُّ له أن يغبطَهم ويحسُدَهم، إذ «**لاَ حَسَدَ إلاَّ فِي اثْنَتَيْنِ: رَجُلٍ آتَاهُ الله مَالاً فَسُلِّطَ عَلَى هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ، وَرَجُلٍ آتَاهُ الله الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُهَا**[5]»، كما قال ﷺ.

فالغنيُّ النَّاصح لنفسه يتمنَّى أن يُحْشَرَ في زُمرة المحسنين، الدَّالِّين على الخير، فكلَّما قرأ إنسانٌ حرفًا من ذاك الكتابِ أو الرِّسالة نال به الأجر، وكان السَّبب في هدايته وإن لم يكن كاتبَه ومؤلِّفَه.

فالدَّاعية يختارُ الأنسب لمجتَمَعِه وحاجة النَّاس له من الكتب، والغنيُّ يدَعِّم تلك المشَاريع الزَّكية وينفِقُ عليها من مالِه.

. العناية بالنُّجباء من الحفظة لكتاب الله تعالى وسنَّة رسوله ﷺ، وإعانتُهم على طلبِ العلم وتفريغُهم لذلك، حتَّى لا ينشغلَ بالُهم بهموم الدُّنيا، خاصَّةً من كان منهم منقطعًا في بعض المدارس الشَّرعية، بتوفيرِ كلِّ ما يُمَكِّنهم من طلب العلم والاجتهاد فيه، كلٌّ على حسب حاجته.

إلى غير ذلك من الوجوه الكثيرةِ الكفيلة برفع هذا المجتمع إلى منار العلم والإيمان، والله الموفِّق لكلِّ خير وأمانٍ.

(5) رواه البخاري (73)، ومسلم (816).



تقويم النفس ومحاسبتها لمعرفة ما لها وما عليها

محمد لوزاني

إنَّ النَّاس يوم القيامة فريقان؛ منهم من يُحاسب حسابًا يسيرًا، ومنهم من يُحاسب حسابًا عسيرًا.

فمن عسر عليه الحساب هَلَكَ وخسر، ومن يُسِّر له فاز وسرر.

فعن الفريق الأول يقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾﴾ [الانشقاق]، ويقول سبحانه عن الفريق الثاني: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾﴾ [الانشقاق].

وقد بيَّن النَّبيُّ ﷺ معنى الحساب اليسير والحساب العسير؛ فعن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن الحساب اليسير؟ فقلت: يا رسول الله! ما الحساب اليسير؟ فقال: **الرَّجُلُ تُعْرَضُ عَلَيْهِ ذُنُوبُهُ ثُمَّ يتَجَاوَزُ لَهُ عَنْهَا إِنَّهُ مَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ هَلَكَ وَلاَ يُصِيبُ عَبْدًا شَوْكَةٌ فَمَا فَوْقَهَا إِلاَّ قَاصَّ اللهُ عزَّ وجلَّ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**[1].

فهل تعرف - أيُّها المسلم! - ما هي الأسباب الَّتي تجعل حسابك يوم القيامة يسيرًا؟

■ ■ ■

إنَّها كثيرة ومتعدِّدة، ولكن أعظمها وأساسها محاسبة النَّفس في الدُّنيا.

قال الحسن البصري رحمه الله: «المؤمن قوَّام على نفسه، يحاسب نفسه لله عز وجل، وإنَّما خفَّ الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدُّنيا، وإنَّما شقَّ الحسابُ يوم القيامة على أقوام أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة»[2].

إنَّ محاسبة النَّفس من أوكد الواجبات، قال ابن القيِّم رحمه الله: «قد دلَّ على وجوب محاسبة النَّفس قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: 18]، يقول تعالى: لينظرْ أحدكم ما قدَّم ليوم القيامة من الأعمال: أمن الصَّالحات الَّتي تنجيه، أم السَّيِّئات الَّتي توبقه؟

والمقصود أنَّ صلاح القلب بمحاسبة النَّفس، وفساده بإهمالها والاسترسال معها

قال قتادة: ما زال ربُّكم يقرِّب السَّاعة حتَّى جعلها كغد.

والمقصود أنَّ صلاح القلب بمحاسبة النَّفس، وفساده بإهمالها والاسترسال معها»[3].

فيا عبد الله! حاسب نفسك في خلوتك، وتفكَّر في انقراض مدَّتك، واعمل في زمان فراغك لوقت شغلك، وتدبَّر قبل الفعل ما يملى في صحيفتك، وانظر هل نفسك معك أو عليك في مجاهدتك.

(1) أخرجه أحمد (25515)، وابن حبَّان (372/16)، وابن خزيمة (30/2)، والحاكم (249/4)، قال الشَّيخ الألباني رحمه الله في «ضعيف أبي داود»: «إسناده حسن».

(2) «المصنف» لابن أبي شيبة (36375)، و«الزهد» لابن المبارك (307).

(3) «إغاثة اللهفان» (84/1).

لقد سعد من حاسبها، وفاز - والله! - من جاهدها، وقام باستيفاء الحقوق منها وطالبها، وكلَّما ونت عاتبها، وكلَّما توقَّفت جذبها، وكلَّما نظرت في آمال هواها غلبها.

فاتَّخذ - أيُّها المسلم! - وقتًا تخلو فيه بنفسك، تنظر في أصناف أفعالها، ظاهرها وباطنها، وتحاسبها، فإنَّ هذا من شِيَم العقلاء النُّبهاء.

عن وهب بن منبِّه قال: «مكتوب في حكمة آل داود: حقٌّ على العاقل أن لا يَغفل عن أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربَّه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يخلو فيها مع إخوانه الَّذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه، وساعة يخلو فيها بين نفسه وبين لذَّاتها فيما يحلُّ ويجمل، فإنَّ في هذه السَّاعة عونًا على تلك السَّاعات، وإجمامًا للقلوب»[4].

إنَّ نفسك قد تكون من جندك، كما قد تكون من أعدائك.

فإنْ حاسبتها سَلِمْتَ من شرِّها وأدخلتها في صفِّك، وإن خلَّيتها وأهملتها استأسدت وسلَّت سيف بَغْيها عليك فيوشك أن تقتلك أو ترديك.

قال ميمون بن مهران: «لا يكون العبد تقيًّا حتَّى يكون لنفسه أشدَّ محاسبة من الشَّريك لشريكه.

ولهذا قيل: النَّفس كالشَّريك الخوَّان، إن لم تحاسبه ذهب بمالك»[5].

كيف يحاسب الشَّريك شريكه؟

إنَّه ينظر في رأس ماله؛ فإن وجده زكَا ونَمَا؛ فهذا يعني أنَّه قد ربح، فيقتسم الرِّبح مع شريكه، وإن وجد نقصًا في رأس ماله؛ فهذا يعني أنَّه خسر؛ فيطالب شريكه بضمانه ويكلِّفه بتداركه في المستقبل.

فكذلك ينبغي أن يكون المسلم مع نفسه، يسألها عن رأس ماله؛ ماذا فعلت فيه؟ ورأس مال العبد في دينه (الفرائض)، وربحه (النوافل والفضائل)، وخسارته (تضييعه لذلك وتعديه لحدود الله)، وموسم هذه التِّجارة اللَّيل والنَّهار.

فمحاسبة العبد لنفسه: أن ينظر ما حظُّه من هذه التِّجارة؟ وأين موقعه منها؟ هل هو من الحافظين لحدود الله والمؤدِّين لفرائضه؟ أم أنَّه من المضيِّعين؟

فيشكر ربَّه على توفيقه ويسأله الثَّبات والمزيد، وليتب إليه ويستغفره على التَّفريط والتَّقصير.

إنَّ الرِّبح في هذه التِّجارة به تُنال السَّعادة في الدُّنيا والآخرة، وهل هناك سعادة أعظم من نيل محبَّة الله تعالى؟! وهل هناك سعادة أعظم من أن يكون العبد وليًّا لله سبحانه؟!

ألا تعلم - يا عبد الله! - بأنَّ من أدَّى الفرائض وتطوَّع بالنَّوافل؛ أحبَّه الله تعالى

يقول الله تعالى في الحديث القدسي:

«وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ؛ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ»[6].

إنَّ سلفنا الصَّالح ضربوا لنا أروع الأمثلة في محاسبة النَّفس لمن يريد أن يقتدي، وأخبارهم في ذلك كاللآلئ والحليِّ، زُيِّنت بها بطون الكتب.

ولقد انتقيت منها ما يناسب المقام:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سمعتُ عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوما وخرجت معه حتَّى دخل حائطًا، فسمعته يقول وبيني وبينه جدار وهو في جوف الحائط:

«عمر بن الخطاب أميرُ المؤمنين بخ بخ، والله لتتَّقينَّ الله - ابن الخطاب! - أو ليعذِّبنَّك»[7].

عن سلمة بن منصور، عن مولى لهم كان يصحب الأحنف ابن قيس قال: كنت أصحبه فكان عامَّة صلاته الدُّعاء، وكان يجيء المصباح فيضع أصبعه فيه ثم يقول: حس! ثمَّ يقول: يا حنيف! ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟! ما حملك على ما صنعت يوم كذا؟!

وعن زائدة بن قدامة قال: كان منصور بن المعتمر إذا رأيته؛ قلتَ: رجلٌ قد أصيب بمصيبة، ولقد قالت له أمُّه: ما هذا الَّذي

(4) «الزهد» لابن المبارك (313).
(5) «محاسبة النفس» لابن أبي الدنيا (ص15).
(6) أخرجه البخاري (6502) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(7) «الموطأ» (1800)، و«الزهد» لأحمد (597).

تصنع بنفسك؟! تبكي الليل عامَّته، لا تكاد أن تسكت، لعلَّك يا بنيَّ! أصبت نفسًا، أقتلت قتيلًا! فيقول: «يا أمَّاه! أنا أعلم بما صنعت نفسي»[8].

وقال محمَّد بن المنكدر: إنِّي خلفت زياد بن أبي زياد مولى ابن عيَّاش وهو يخاصم نفسه في المسجد يقول: «اجلسي أين تريدين؟ أين تذهبين؟ أتخرجين إلى أحسن من هذا المسجد؟ انظري إلى ما فيه؛ تريدين أن تبصري دار فلان ودار فلان ودار فلان؟»[9].

ومن محاسبة النَّفس: عرض أفعالها على كتاب الله تعالى، ليعلم العبد أهو من الَّذين أحسنوا فلهم عند الله الحسنى وزيادة؟ أم أنَّه من الَّذين اجْتَرَحُوا السَّيِّئات؟

وقد ذكر ابن نصر المروزي في كتابه «مختصر قيام الليل» (ص23) عن الأحنف بن قيس قصَّةً في هذا المعنى، فيها ذكرى وموعظة وعبرة لمن كان له قلب أو ألقى السَّمع وهو شهيد.

فعنه أنَّه كان جالسًا يومًا، فعرضت له هذه الآية: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [سورة الأنبياء]، فانتبه فقال: عليَّ بالمصحف، لألتمس ذكري اليوم حتَّى أعلم مع من أنا ومن أشبه، فنشر المصحف فمرَّ بقوم: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ [سورة الذاريات]، ومر بقوم: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة السجدة]، ومرَّ بقوم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾ [سورة الفرقان]، ومرَّ بقوم: ﴿...يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [سورة آل عمران]، ومرَّ بقوم: ﴿..وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ [سورة الحشر]، ومرَّ بقوم: ﴿... يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [سورة الشورى].

قال: فوقف، ثمَّ قال: اللَّهمَّ لست أعرف نفسي ههنا.

ثمَّ أخذ في السَّبيل الآخر، فمر بقوم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الصافات]، ومرَّ بقوم: ﴿.. وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [سورة الزمر]، ومرَّ بقوم يقال لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة المدثر].

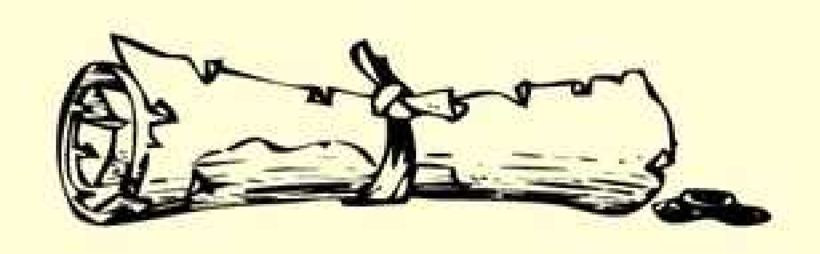
قال: فوقف، ثمَّ قال: اللَّهم إنِّي أبرأ إليك من هؤلاء.

قال: فما زال يقلِّب الورق ويلتمس حتَّى وقع على هذه الآية: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [سورة التوبة]، فقال: اللهم هؤلاء.

ومن محاسبة النَّفس: عرض أفعالها على كتاب الله تعالى، ليعلم العبد أهو من الَّذين أحسنوا فلهم عند الله الحسنى وزيادة؟ أم أنَّه من الَّذين اجْتَرَحُوا السَّيِّئات؟

فيا عبد الله! إذا أردت أن تعرف قيمة هذه الحياة، وإذا أردت أن تعرف أعزَّ وأغلى ما فيها وما هو حريٌّ بأن تطلبه وتسعى في تحقيقه وتبذل النَّفس والنَّفيس في سبيل ذلك؛ تصوَّر لو مثِّلت لك نفسك في الجنَّة تأكل ثمارها وتشرب من أنهارها وتعانق أبكارها، ثمَّ مثِّلت لك نفسك في النَّار تأكل من زقُّومها وتشرب من حميمها وتعالج سلاسلها وأغلالها؛ فلو سألت نفسك حينئذ وقلت لها: أيْ نفسي! أيُّ شيء تريدين؟

فإنَّها تقول لك لا محالة: أريد أن أردَّ إلى الدُّنيا فأعمل صالحًا، فأنت في الأمنية فاعمل[10].



(8) «شعب الإيمان» (813).
(9) «شعب الإيمان» (5298).

(10) من كلام إبراهيم التيمي، انظر «صفة الصفوة» (3/ 90. 91).

من الرَّحلات المغربية

أشرف جلال بن أودينة

تزخر خزانة المذهب المالكي للمغاربة بكنوز من الفنون والعلوم، ومن جواهر تلك الفنون أدب الرِّحلة،الَّذي يُعَدُّ امتدادًا لرحلة أهل الحديث.

والنَّاظر في رحلاتهم يجد أنَّ أرواحهم تطير بأجنحة الشَّوق إلى ذلك المكان وتقطع علائق الأهل والأوطان بل كان يدبُّ بين الجلد والعظام دبيب تلك المشاعر العظام من شوق لبيت الله الحرام.

وقد دوَّنوا في رحلاتهم بنثر بديع فوائد فقهيَّة وأشعارًا عذبة مع لقاء بأهل العلم كما أخذوا إجازات مسندي عصرهم مع ما زيَّن رحلاتِهم من غرائب ونوادر تُطرب الأسماع.

هذا وقد عزمت على جمع تلك الرَّحلات في ثبت مستقلٍّ مع اقتناص ما فيها من فوائد والتقاط ما حوته من درر وجواهر، وأذكر في هذا المقام بعضًا منها فأقول:

- من أشهر الرَّحلات المغربيَّة على الإطلاق رحلة ابن بطُّوطة.

وهي الرِّحلة المسمَّاة: «**تحفة النُّظَّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**»[1] وقد ترجمت إلى عدد من اللُّغات منها البرتغاليَّة والفرنسيَّة والإنجليزيَّة ،ومن العجب أن لقَّبته جمعيَّة «كمبردج» في كتبها وأطالسها بأمير الرَّحَّالين المسلمين.

وابن بطُّوطة هو شرف الدِّين أبو عبد الله محمَّد ابن عبد الله بن محمَّد بن ابراهيم بن يوسف اللواتي ثمَّ الطَّنجي المتوفَّى سنة (777هـ)، دوَّن فيها ما شاهده في رحلته من الأمصار كبلاد العراق ومصر والشَّام واليمن والهند والصِّين وأواسط إفريقيَّة في بلاد السُّودان وفي الأندلس، أملاها بأمر من السُّلطان أبي عنان[2] - من ملوك بني مدين على الشَّيخ محمَّد ابن جُزَيّ[3] الكلبي - ولَد صاحب «القوانين الفقهيَّة» -.

وقال صاحب «الدُّرر الكامنة»: «قرأت بخطِّ ابن مرزوق أنَّ أبا عبد الله بن جزي نمَّق رحلته وحرَّرها بأمر السُّلطان أبي عنان وكان البلقينى رماه **بالكذب** فبرَّأه ابن مرزوق».

قال ابن جُزَي الكلبي في المقدمة:

«ونقلت معاني كلام الشَّيخ أبي عبدالله بألفاظ موفية للمقاصد الَّتي قصدها، موضِّحة للمعاني الَّتي اعتمدها».

ويقول في آخر الكتاب: «انتهى ما لخَّصته من تقييد الشَّيخ أبي عبدالله محمد بن بطُّوطة».

وابن بطُّوطة قبوريٌّ تفيضُ رحلتُه بأخبار المتصوِّفين والأولياء وخوارقهم وكراماتهم مما تمجه الأسماع وتنفر عنه الطِّباع.

وفي رحلته هذه كذب على شيخ الإسلام ابن تيمية، وذكر

(1) طبعت عدَّة مرَّات أحسنها طبعة الدُّكتور علي بن المنتصر الكتَّاني بدار الرِّسالة.

(2) المتوكِّل على الله فارس بن عليِّ بن عثمان بن يعقوب المريني، أبو عنان (729 - 759 هـ): من ملوك الدَّولة المرينية بالمغرب، ولد بفاس الجديدة، ونشأ محبوبًا في قومه لفضله وعلمه، ثار على أبيه وبويع في حياته عام (749 هـ)، احتلَّ تلمسان، وانتظم له المغرب الأوسط، وانتزع قسنطينة وتونس من أيدي الحفصيِّين، قتله وزيره الحسن بن عمر الفودوي خنقًا، كان فارسًا شجاعًا وفقيهًا وكاتبًا بليغًا وشاعرًا، له آثار من مدارس وزوايا. «الأعلام» (127/5).

(3) محمَّد بن محمَّد بن أحمد بن جُزَيٍّ الكلبي، أبو عبد الله (721 - 757 هـ): شاعر من كتَّاب الدَّواوين السُّلطانيَّة، أندلسي من أهل غرناطة، ولد بها، واستكتبه أبو الحجَّاج يوسف بن الأحمر النَّصري، ثمَّ ضربه بالسيَّاط من غير ذنب اقترفه؛ فانتقل إلى المغرب وأقام بفاس عند ملكها المتوكِّل على الله أبي عنان المريني وتوفِّي فيها. له كتاب في [تاريخ غرناطة]. «الأعلام» (37/7).

أنَّه حضر يوم الجمعة وابن تيمية يعظ النَّاس على منبر الجامع ونزل من درجة المنبر وهو يقول إنَّ الله ينزل إلى السَّماء الدُّنيا كنزولي هذا... إلى آخر الافتراء.

وأكبر دليل على أنَّ ابن بطُّوطة ـ غفر الله له ـ كذب على ابن تيمية كما قال محقِّق الرِّحلة الدُّكتور علي المنتصر الكتَّاني: «هذا محض افتراء على الشَّيخ رحمه الله، فإنَّه كان قد سجن بقلعة دمشق قبل مجيء ابن بطُّوطة إليها بأكثر من شهر، فقد اتَّفق المؤرِّخون أنَّه اعتقل بقلعة دمشق لآخر مرَّة في اليوم السَّادس من شعبان سنة (726 هـ) ولم يخرج من السِّجن إلاَّ ميتاً، بينما ذكر المؤلِّف ـ ابن بطُّوطة ـ في الصَّفحة (102) من كتابه أنَّه وصل دمشق في التَّاسع من رمضان» اهـ.

وابن بطُّوطة لم يسمع من ابن تيمية ولم يجتمع به فكيف تصحُّ رؤيته له والسَّماع منه وابن تيمية ما صعد المنبر يومًا لوعظ النَّاس كما هو مقرَّر في سيرته[4].

والباعث على الكذب على شيخ الإسلام أنَّ ابن بطُّوطة قبوريٌّ يهوى المزارات أمَّا موقف ابن تيمية من الزِّيارة البدعيَّة فمعروف مشهور.

(4) من أوعى الرُّدود العلميَّة على ما جاء من افتراء في تلك الرِّحلة ما سطَّره الشَّيخ أبو عبد المعزِّ محمَّد عليٌّ فركوس حفظه الله، انظر: «دعوى نسبة التَّشبيه والتَّجسيم لابن تيمية وبراءته من ترويج المغرضين لها».

ومن أعذب رحلات المغاربة: الرِّحلة المسمَّاة: «**تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**»[5].

وهي رحلة الشَّيخ العلاَّمة خالد بن عيسى ابن أحمد بن إبراهيم ابن أحمد بن علي بن خالد البلوى المالكي (ت نحو 765 هـ)، وهي رحلة بديعة النَّثر حسنة الزِّيِّ عذبةُ الرَّيِّ مرصعة بجواهر الأشعار.

قال في مقدِّمته: هذا تقييد، أطلعه عون من الله وتأييد، قصدت به ضبط موارد الرِّحلة الحجازيَّة، وذكر معاهد الوجهة المشرقيَّة، جعلها الله تعالى في ذاته وابتغاء مرضاته، بمنِّه وكرمه، وألممت مع ذلك بذكر بعض الشُّيوخ من العلماء الفضلاء الَّذين يطئون ذيول البلاغة، ويجرون فضول البراعة، ولهم كلام يتألَّق منه شعاع الشَّرق، ويترقرق عليه صفاء العقل، وينبتُ فيه فرند الحكمة، ويعرض على حلى البيان، وينقش في فَصِّ الزَّمان، ويحفظ على وجه الدَّهر، ويفضح عقائل الدُّر، ويخجل نور الشَّمس والبدر، وألمعت بذكر نبذ من فوائدهم، واختيار طرف من أناشيدهم، ومزجتها بما جرت إليه العبارة، وحسنت فيه الإشارة، من قطع الشِّعر المناسبة قطع النُّور، المنتظمة من جواهر اللَّفظ، البعيدة الغور، الغريبة الحفظ، الآخذة من الحسن بأوفر الحظِّ، مقتديا في ذلك كلِّه بقول القائل:

قالوا خذ العين من كلٍّ فقلت لهم
في العين فضل ولكن ناظر العين
حرفان في ألف طومار مسودة
وربما لم تجد في الألف حرفين

ولما بوَّبت ما ألَّفت، ورصعت ما جمعت، وشعشعت ما وضعت، فجاء كما تراه حسن الزِّيِّ، عذب الرَّيِّ، عالي القدر، غالي الدُّر، مسبوك الحلية والتِّبر، فيه للمسمع مراد، وللفكر معاد، وللألباب مسرح ومرتاد، سميته: بـ «تاج المفرق في تحلية علماء المشرق»، ودعوت الله تعالى في مواطن الإجابة، أن يوفِّقني فيه للإجادة والإصابة، وأن ينفع به كلَّ من يلتمس النَّفع به في المطالعة أو الكتابة، وهو سبحانه سميع الدُّعاء، مجيب النِّداء، محقِّق الرَّجاء، وهو حسبي ونعم الوكيل».

(5) طبعت بتحقيق حسن السَّائح، وقد أثبت في تقديمه للكتاب أنَّ ابن بطُّوطة ربَّما سمع باسم عالم من علماء البلد الَّتي زارها فيذكر اسمه في رحلته ولو لم يتَّصل به اتِّصالاً شخصيًّا، أو يقابله حقيقة، بل يستفيد ممَّا سمعه ويضمنه رحلته وكأنَّه قابله أو شاهده، كما فعل في تونس حين ذكر علمًا من أعلامها وهو ابن الغماز.



ومن أشهر الرَّحلات كذلك: «**الرحلة العياشية إلى الديار النورانية أو ماء الموائد**» **لأبي سالم عبد الله بن محمَّد بن أبي بكر العيَّاشي المغربي المتوفَّى سنة** (1090 هـ).

الَّذي ترجم له الكتَّاني[6] بقوله: «العياشي نسبة إلى آيت عياش قبيلة من البربر تتاخم بلادهم الصَّحراء من أحواز سجلماسة ويقال للواحد منهم بلغتهم فلان أعياش قاله الشَّيخ المسناوي في كتابه «جهد المقلِّ القاصر»[7].

وقال أيضًا: «ألَّف رحلته الشَّهيرة في مجلَّدين كبيرين» اهـ.

وهي مطبوعة بفاس، قال عنها الشَّيخ المسناوي في «جهد المقلِّ القاصر»: «جمَّة الفوائد عذبة الموارد، غزيرة النَّفع جليلة القدر، جامعة في المسائل العلميَّة المتنوِّعة ما يفوت الحصر، سلسة المساق والعبارة، مليحة التَّصريح والإشارة.

طبعت الرِّحلة قديمًا طبعةً حجريَّة بفاس (1316 هـ)، والطَّبعة الثَّانية بتحقيق محمَّد حجِّي، مصورة عن الطَّبعة الأولى، والطَّبعة الثَّالثة في دار السُّويدي للنَّشر والتَّوزيع أبو ظبي بتحقيق د. سعيد الفاضلي و د. سليمان القرشي.

ويوجد في مكتبة البلدية في مدينة الإسكندريَّة بمصر نسخة مخطوطة تحت رقم (3437ج) في جزأين، بخطٍّ مغربيٍّ جميل، كما أنَّ هناك نسخة ثانية في مكتبة استانبول برقم (2415).

.والعيَّاشي مالكيُّ المذهب أشعريُّ العقيدة غارقٌ في التَّصوُّف ما ترك في رحلته قبرًا ولا مزارًا إلاَّ دعا عنده ورجا بركة صاحبه وذكر شيئًا من كراماته، والغلوُّ في القبور في رحلته واضحٌ لكلِّ ناظر ومتصفِّح.

وهو محدِّث وفقيه يفتي أهل القرى الَّتي ينزل بها ويدرِّسهم فقد شرح منظومة الإشبيلي في المصطلح؛ كما يروي الأحاديث بإسناده ويحكم عليها صحَّة وضعفًا ومع هذا هو شاعر وأديب وصوفيٌّ بارع في التَّوسُّل بالرَّسول وجُلُّ شعره في مديح النَّبيِّ ﷺ بل كلَّما عاقه في سفره عائق يلجأ إلى الاستغاثة إلى الله بنبيِّه الكريم وبالقصائد المدحيَّة لإزالة العوائق وكشف الكربات بل يعتقد أنَّ تذليل الصِّعاب في الرِّحلة يعود إلى تلكم القصائد .

وهو مع كلِّ هذا من أصحاب الموالد والزِّارات والمشاهد . ويذكر أنَّه مدح الرَّسول ﷺ في المولد في قصائد رتَّبها على حروف المعجم.

وعقد فصلاً في رحلته وجمع رسالة سمَّاها «تحرير كلام القوم في أمر النَّبيِّ في النَّوم»، حشد فيها النُّصوص وساق عشرات الأقوال للأيمَّة في المسألة كما رجَّح فيها رؤية النَّبيِّ في اليقظة على مذهب المتصوِّفة وعمدته في ذلك رسالة «الكواكب الزَّاهرة في اجتماع الأولياء يقظة بسيد الأولين والآخرين في الدُّنيا والآخرة» للشَّيخ عبد القادر بن مغيزل الشَّاذلي[8].

ومسار رحلته كان ابتداءً بسجلماسة مارًّا بمدينتي تقرت وورقلة وقد سمَّاهما في رحلته (أوكرت و واركلاَ) إلى طرابلس فالقاهرة إلى رابغ فمكة والمدينة كما انتقل في عودته إلى القدس والخليل وغزَّة ثمَّ مرَّ ببسكرة إلى أن وصل لبلده ظهر الأربعاء سابع عشر شوَّال سنة أربع وسبعين وألف.

(6) «فهرس الفهارس» (472/833/2)؛ كما أفرد ترجمته بالتَّأليف حفيده أبو عبد الله محمَّد بن حمزة بن أبي سالم في كتابه: «الزَّهر الباسم في جملة من كلام أبي سالم».

(7) أبو عبد الله محمَّد الشَّهير بالمسناوي ابن أحمد بن محمَّد الملقَّب بالمسناوي ابن محمَّد بن أبي بكر الدَّلائي صاحب رسالة «نصرة القبض والرَّدُّ على من أنكر مشروعيته في صلاتي النَّفل والفرض» الَّتي طبعت لكن لم تحقَّق. وكتابه «جهد المقلِّ القاصر في نصرة الشَّيخ عبد القادر» مخطوط لم يطبع بعد ويبدو من خلاله أنَّ مصنِّفه مثبت لصفات الباري عزَّ وجلَّ.

(8) ذكره الإمام الذَّهبي في «العبر» فقال: «الشَّاذلي أبو الحسن عليُّ بن عبد الله بن عبد الجبَّار المغربي، الزَّاهد، شيخ الطَّائفة الشَّاذليَّة، سكن الإسكندرية وله عبارات في التَّصوُّف توهم، ويتكلَّف له في الاعتذار عنها، وعنه أخذ أبو العبَّاس المرسي، وتوفِّي الشَّاذلي بصحراء عيذاب متوجِّهًا إلى بيت الله الحرام في أوائل ذي القعدة 656هـ، عيذاب: على طريق الصعيد بمصر.

ويذكر في هذه الرِّحلة زيارة الأتقياء ولقاء المشايخ الفضلاء ومحاضرة الأدباء الفضلاء و فوائد ممَّن اجتمع بهم من العلماء والأئمَّة وما وقف عليه من كتب وشروح في مكتباتهم.

وقد خصَّ مشيخته بفهرسة سمَّاها: «اقتفاء الأثر»[9] ذكر شيوخه المغاربة والمشارقة وعرَّف بهم وبما أخذ عنهم.

ويبلغ مجموع الشُّيوخ الَّذين لقيهم في وجهته ممَّن أخذ عنهم من العلماء وأصحاب الطَّلب، أو الَّذين تبادل معهم الأخذ أو أفادوا منه، ما يزيد على تسعين رجلاً.

*** أخذه للقرآن الكريم:**

وأوَّل من قرأ عليه بالمدينة غداة نزوله بها، الشَّيخ المقرئ أبو الحسن علي الديبع اليمني قال: فسألته أن أقرأ عليه ختمة من القرآن العظيم بقراءة الإمام عبد الله بن كثير المكِّي، فأذن في ذلك، وجعل لي وقتًا معلومًا بين من يقرأ عليه و... كان محقِّقًا لقراءة السَّبع، مجيدًا لها، حسن التِّلاوة، ما سمعت أذني في أقطار الأرض كلِّها - على كثرة ما سمعت - أحسن منه تلاوته للقرآن وأطيب منه نغمة به، وأجود منه ترتيلاً له، يعطي الحروف حقَّها في مخارجها من غير إفراط ولا تفريط في تؤدة وسكون ووقار، بقراءة مسترسلة متناسبة، لا يرجِّع فيها ترجيع أهل الألحان... ولا يمدُّ في غير محل المدِّ، ولا يتركه في محلِّه محافظًا على مراتبه من توسُّط وتفخيم وترقيق وتغليظ وتشديد وغنَّة وإظهار وإخفاء، إذا رأيته يقرأ رأيت أنَّه يخشى الله.

ومن العلماء الَّذين التقى بهم في رحلته كما يذكر في ترجمة الشَّيخ محمَّد بن عبد الكريم الفكون القسنطيني[10] ما أنتجه والده الشَّيخ من كتابة وتأليف، وكان الشَّيخ الابن محمَّد، أميرَ ركب الحاجِّ الجزائري الَّذي ينطلق من قسنطينة، لقيه أبو سالم في أولى إمارة الرَّكب، وكان أبو سالم قد أدرك الشَّيخ الوالد عبد الكريم الفكون (ت 1073 هـ) والتقى به لما حجَّ معه سنة (1064 هـ).

(9) نشرت فهرسة «اقتفاء الأثر» بتحقيق الأستاذة نفيسة الذَّهبي، وصدرت ضمن منشورات كلِّيَّة الآداب بالرِّباط، 1996م.

(10) «شيخ الاسلام عبد الكريم الفكون / داعية السَّلفية» لأبي القاسم سعد الله، النَّاشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت.

فكان ممَّا اطَّلع عليه من كتب الشَّيخ[11]:

- «شرح على أرجوزة المكودي في التَّصريف»، وهو شرح جيِّد، فاق فيه - حسب أبي سالم - شرح أبي عبد الله المرابط الدلائي[12].
- «جزء في تحريم الدُّخان»[13].
- «كتاب في حوادث فقراء الوقت».
- «شرح مخارج الحروف من الشَّاطبيَّة».
- «شرح لامية الجمل لابن المجراد السلوي».
- شرح شواهد الشَّريف على الجرومية.

كما اطَّلع أبو سالم في مكَّة أيضًا على كتب نادرة أخرى، منها «تاريخ الإسلام» للذَّهبي في عشرة أجزاء كبار.

*** فوائد وغرائب :**

من النَّوادر الَّتي ساقها أنَّه دخل مدينة ورقلة وأقام بها لحضور صلاة الجمعة، وصلَّى بجامع المالكية، خطب بها الخطيب خطبة أكثر فيها اللَّحن والخطأ والتَّحريف مع إدغام أكثر حروفها، فكان يتخوَّف أن لا تصحَّ معه جمعة إن كانت صلاته كخطبته الَّتي دعا فيها للإمام المهدي ثمَّ للسلطان الأعظم، فلمَّا سأل الخطيب عن المهدي أهو المنتظر أم غيره أجاب بأنَّه النَّبيُّ فظهر أنَّه لا يفقه شيئًا، قال الرُّحلة: فعلمت أنَّ الخطبة مكتوبة في صحيفة من أيَّام المهدي بن تومرت.

ومن الغرائب[14] أنَّه قصد مسجدًا لصلاة المغرب مُتقنَ الصَّنعة، مجصَّص الأرض والحيطان، على بابه أماكن، وبجانبه مائضة معدَّة للوضوء ومكان لقضاء الحاجة وتسخين الماء، قال: فأعجبني غاية فلمَّا دخل المؤذِّن كبَّر أربعًا أوَّل الأذان وأربعًا آخرًا فأنكر ذلك في نفسه إذ القوم مالكية في ظنِّه فلمَّا دخل النَّاس للصَّلاة ابتدروا زوايا المسجد يتيمَّمون، فقلت: عجبًا هؤلاء كلُّهم

(11) ما ذكر من مؤلَّفات لا تزال مخطوطة وما طبع منها لم يذكره الرَّحَّالة وهو كتاب «منشور الهداية في من ادعى العلم والولاية»، تقديم و تحقيق و تعليق: الدُّكتور أبو القاسم سعد الله، نشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت.
ومن مؤلَّفاته «سربال الرِّدَّة في من جعل السَّبعين لرواة الإقرا[كذا] عدَّة»: ذكر أبو القاسم سعد الله في موسوعته «تاريخ الجزائر»: (25/2) أنَّ الكتاب مخطوط بباريس، وهو تأليف في القراءات، غنيٌّ بالآراء والنُّقول، عالج فيه أنواع القراءات ورواتها.

(12) انظر: «الزَّاوية الدلائية ودورها الدِّيني والسِّياسيّ» لمحمَّد حجِّي - المطبعة الوطنيَّة الرِّباط -؛ وله شرح على تصريف الأفعال توجد منه نسخة بخزانة الشَّيخ البشير محمودي بالغرب الجزائري، انظر فهرسة رقم .48

(13) واسمه: «محدد السِّنان في نحور أصحاب الدُّخان» لخَّصه العيَّاشي في رحلته.

(14) انظر (116 - 126) من الرِّحلة.

من ذوي الأعذار ثمَّ وقع في نفسي أنَّهم روافض، ثمَّ سأل بعد ذلك فإذا هم طائفة من الإباضيَّة من أتباع عبد الله بن أباض يوافقون المعتزلة في أكثر عوائدهم، كنفي الرؤية والقول بخلق القرآن، ويبغضون بعض الصَّحابة، وهم كثيرون في هذه القرية، .وأصل مادَّتهم من جبال أباض وهم كلُّهم روافض[15]، وهؤلاء الرَّوافض يسمُّون أشياخهم بعم فلان، فيقولون نصَّ على هذه المسألة عمٌّ داود أو عمٌّ ابراهيم.

وقال أيضًا: وجدنا في بعض المزارع رجلاً يحرث ببقرة واحدة، وآخر يحرث بجمل، والأعجب منهما إنسان يحرث بإنسان آخر يمسك أحدهما المحراث ويجر الآخر.

رغم طبع هذه الرِّحلة عدَّة طبعات فهي لم تحقَّق تحقيقًا علميًّا يكشف ما فيها من غلوٍّ في الصَّالحين وتوسُّل غير مشروع وتأويلٍ للصِّفات وغيرها من المسائل العقديَّة المهمَّة.

ومن الرَّحلات الَّتي تزخر بها خزانة المغاربة:

«أصفى الموارد في تهذيب نظم الرِّحلة الحجازية للشَّيخ الوالد» لمحمَّد المختار السُّوسي، طبعة المغرب.

«رحلة التجاني» تأليف أبي محمَّد عبدالله بن محمَّد ابن أحمد التجانى التُّونسي (ت 717 هـ)، طبع في الدَّار العربيَّة للكتاب ليبيا ـ تونس (1981).

«رحلة الوزير في افتكاك الأسير» تأليف الوزير محمَّد ابن عبد الوهَّاب الغسَّاني الأندلسي الفاسي المالكي (ت 1119 هـ)، طبع في دار السُّويدي ـ الإمارات، الطَّبعة الأولى (2002) بتحقيق نوري الجراح.

(15) الصواب أنهم ينسبون إلى الخوارج [التحرير].

«ناصر الدِّين على القوم الكافرين» . مخطوط . وهو المختصر من كتاب «رحلة الشِّهاب».

مؤلِّفه : أحمد بن قاسم بن أحمد بن الفقيه قاسم.

دار الكتب المصريَّة القاهرة رقم (1634)، عدد الأوراق: 38 ورقة.

«رحلة العبدري» (ت بعد 688 هـ)، وهو العلاَّمة الأديب المحدِّث المسند النَّاقد الرَّحَّال أبو عبد الله محمَّد بن محمَّد ابن محمَّد بن علي بن أحمد بن مسعود العبدري المغربي المالكي.

يحكي في رحلته اجتماعَه بابن دقيق العيد، ومدحه لابن القطَّان الفاسي

قال الزِّركلي في «الأعلام» (31/7): كتاب (رحلته ـ خ) نشر شاربونو (Charbonneau) مقتطفات منه في المجلة الآسيوية (4 من الحلقة الخامسة) ومنه مخطوطة مصوَّرة كاملة في دار الكتب المصريَّة (رقم 2218 تاريخ، تيمور) وكان العبدري قد بدأ بتقييدها في تلمسان، ورحل من تلمسان في ربيع الأوَّل (689 هـ)، ثمَّ عاد إليها في طريقه بعد الحجِّ، واستقرَّ في بلده، حيث أنجز الرِّحلة. اهـ

«رحلة ابن جبير»: لأبي الحسن محمَّد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي البلنسي، سمَّاها: «تذكرة بالأخبار عن اتِّفاقات الأسفار»، ابتدأ بتقييدها يوم الجمعة الموفِّي ثلاثين لشوَّال سنة (578 هـ).

سمع من أبيه بشاطبة وعني بالأدب فبلغ الغاية فيه وتقدَّم في صناعة القريض والكتابة، خرج من غرناطة في رحلته الأولى سنة 578 هـ ووصل إلى الاسكندرية بعد ثلاثين يومًا ورحل إلى الشَّام والعراق والجزيرة وغيرها ثمَّ عاد إلى الأندلس سنة (581 هـ)، وذكر في هذه الرِّحلة ما شاهده من الآثار، ووصف حال مصر في زمن السُّلطان صلاح الدِّين الأيُّوبي والمسجد الأقصى والجامع الأموي والسَّاعة العجيبة الَّتي كانت فيه وانتقد كثيرًا من الأحوال.

والثَّانية رحلها بعد فتح بيت المقدس على يد صلاح الدِّين، تبدأ سنة (585 هـ) وتنتهي سنة (587 هـ).

والثَّالثة من سبتة إلى مكَّة المكرَّمة وبيت المقدس، وكان المترجم من أهل المروءات، مؤنسًا للغرباء، عاشقًا لقضاء حوائج النَّاس، كانت وفاته بالاسكندرية.

طبعت رحلته باسم: «رحلة ابن جبير» أو «الرِّحلة إلى المشرق»، ومعها مقدِّمة باللُّغة الانكليزية للمستشرق ويليم ريط ليدن سنة (1852م)، ثمَّ سنة (1907م) على نفقة لجنة تذكار جيب، وفي مطبعة السَّعادة مصر سنة (1326هـ ـ 1908م).

«ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكَّة و طيبة» المعروفة بـ: «رحلة ابن رشيد السبتي» (ت721هـ).

طبعة الدَّار التُّونسية للنَّشر 1402 هـ ـ 1982م تحقيق: الدُّكتور محمَّد الحبيب بن الخوجة.

«الرِّحلة الإبريزيَّة إلى الدِّيار الإنجليزيَّة» للشَّيخ أبي الجمال محمَّد الطَّاهر بن عبد الرَّحمن الفاسي.

كتاب ممتع حكى فيه مؤلِّفه ما شاهده في رحلة إلى الدِّيار الإنجليزيَّة قام بها عام (1276 هـ) الموافق (1860م) كسفير للدَّولة المغربيَّة العلويَّة، وهو يصف العجائب والغرائب الَّتي شاهدها هناك بما فيها من عبرة لمن اعتبر.

طبع في جامعة محمَّد الخامس سنة (1387 هـ ـ 1967م) بتحقيق الأستاذ محمَّد الفاسي.

هذا ما تسنَّى ذكره في هذا المقام من رحلاتٍ علميَّةٍ للمغاربة راجيًا من الله التَّوفيق والعون لذكر ما حوته من فوائد، واقتناص ما فيها من شوارد الفرائد، في مقام آخر والحمد لله أوَّلاً وآخرًا وظاهرًا وباطنًا وصلَّى الله على محمَّد نبيِّنا وعلى آله وصحبه وسلَّم.



في ضابط المسابقات وحكم الدورات الرياضية بين المساجد

أ.د. محمد علي فركوس
أستاذ بكلية العلوم الإسلامية بجامعة الجزائر

السؤال:

نرجو من شيخنا الفاضل أن يذكر لنا ضابطًا في عموم المسابقات ويفصّل لنا في هذه المسألة الَّتي عَمَّت بها البلوى، خاصَّةً في فصل الصَّيف، ألا وهي: الدَّورات الرِّياضيَّة، وتفاصيلها كما يلي:

تُنَظَّمُ هذه الدَّورة بين المساجد، حيث كلُّ مسجد يكوِّن فريقًا خاصًّا به، ويُسهم كلُّ محسنٍ بمبلغٍ من المال بحسبه، ثمَّ تُجمع تلك الأموال، ويشترى بها رسائل في الفقه أو في التَّوحيد لعوامِّ النَّاس؛ أو تُجْمَعُ وتُوَزَّعُ على الفقراء والمساكين أو تُصْرَفُ في بناء المساجد والمصلَّيات وسائر وجوه البرِّ والخير.

أفيدونا، وجزاكم الله خيرًا.

الجواب:

إنَّ عموم المسابقات يمكن ضبطها بضابط شرعيٍّ يظهر في أنَّ: كُلَّ مسابقة تُحرم إذا ما اشتملت على محرَّم ذاتيٍّ أو وصفيٍّ أو شَرْطيٍّ، أو صَدَّت عن واجبٍ شرعيٍّ كالصَّلاة والذِّكر، أو استوعبت جميعَ الوقت بحيث تصرف عن واجبات الحياة، أو ترتَّب عليها ضررٌ مؤكَّد أو مفسدةٌ متحقَّقة فرديَّةً أو جماعيَّةً، كالتحزُّبات وإثارةِ الفتن وتنميةِ الأحقاد والبغضاء والتَّنافر، أو كانت قائمةً على الحظِّ والمصادفة كالنَّرد وشِبْهِهِ؛ وفي مثل هذه المسابقات يحرم بَذْلُ العِوَضِ عليها اتِّفاقًا.

أمَّا إذا انتفت هذه الأوصاف عنها، فإن كانت مبنيَّةً على تحصيل المقاصد الشَّرعيَّة في الغزو والانتفاع بها في الجهاد في سبيل الله فإنَّ السِّباق عليه محبوبٌ ومرغوبٌ فيه ومرضيٌّ لله تعالى، ويُستحبُّ بَذْلُ العِوَضِ عليه، وإن كانت خاليةً من المقاصد السَّابقة ولا معنى لها سوى بناء الجسم وتقويته وتنشيط الدَّم والعضلات بالحركات قصد التَّخلُّص من الأمراض العالقة والأسقام المزمنة، فإنَّ مثل هذه المسابقات تندرج تحت قاعدة: «**الأَصْلُ فِي الأَشْيَاءِ وَالأَعْيَانِ المُنْتَفَعِ بِهَا الإِبَاحَةُ وَالجَوَازُ**»، وهي لا تنافي أصولَ الشَّريعة في الجملة الآمرة بإعداد القُوَّة الجسديَّة الجسمانيَّة، ولكن بذل العوض عليها غير جائز شرعًا.

ودليلُ عدم مشروعيَّةِ بَذْلِ العِوَضِ على مثل هذه المسابقات ما أخرجه الأربعة وأحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لاَ سَبَقَ إِلاَّ فِي نَصْلٍ أَوْ خُفٍّ أَوْ حَافِرٍ**»[1]، وهذا الحديث وإن روي بإسكان الباء في قوله: «**لا سَبْق...**» إلاَّ أنَّ المحفوظ من الرِّوايات بفتحها، وهذا المراد منه العوض أو

(1) أخرجه أبو داود (2574)، والتِّرمذي (1700)، والنَّسائي (3585)، وابن ماجه (2878)، وابن حبَّان (1638)، وأحمد (2/474)، والحديث حسَّنه الألباني في «الإرواء»: (1506).

الجُعْل أو الرِّهان، ورواية الإسكان ـ ولو سُلِّمَ ـ لكانت محمولةً على نفي الكمال والتَّمام، أي: لا سَبْق أكمل منفعةً وأتمُّ مصلحةً إلاَّ في الثَّلاثة، وظاهر الحديث يدلُّ على مشروعيَّة المسابقات وحصر بَذْلِ العوض على المذكورات في الحديث بكونها رياضةً محمودةً باعثةً على تحصيل المقاصد الشَّرعية السَّالفة البيان، وما عدا ذلك فقد نفاه الشَّرع إمَّا بمفهوم الحصر أو بكون الأصل في الأموال التَّحريم، وعليه فلا يُعدَل عن حكم المنع ولا يُخَرَمُ الحصرُ الوارد في الحديث إلاَّ بوجود دليل صارفٍ أو قياسٍ سائغٍ تتجلَّى فيه تلك المقاصد الشَّرعية حتَّى يصحَّ بذل الجُعل أو العِوض عليها.



وممَّا يعدل به عن الأصل المقرَّر في المنع لوجود نصٍّ صارفٍ عنه مصارعةُ النبيِّ ﷺ ركانةَ بنَ عبدِ يزيدَ على شاة فصرعه النَّبيُّ ﷺ ثمَّ عاد فصرعه، فأسلم وردَّ عليه الغنم[2]، والحديث جَوَّده ابن القيِّم وحَسَّنه الألباني[3]، فيكون الحديث مخصِّصًا لعموم منع البذل بالعوض بالشُّروط والقيود المذكورة آنفًا.

ويُلحق به كذلك المسابقات العلميَّة في حفظ القرآن الكريم والحديث النَّبويِّ الشَّريف ودرايته، ومعرفة أحكام الفقه الإسلاميِّ والسِّيرة النَّبويَّة، وغيرها من العلوم النَّافعة، إذ تنمِّي القدرات العلميَّة وتوسِّع دائرتها، وتبعث في النَّفس حُبَّ التَّعلُّم والمعرفة، وتشجِّع التَّنافس على الخير والنَّفع، ويدلُّ عليه ما أخرجه التِّرمذي من أنَّ أبا بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه رَاهَنَ كفَّارَ مكَّةَ على غلبة الرُّوم للفرس، وقد بَذَلَ كُلٌّ منهما جُعلاً للآخر[4]، والحادثة وقعت في زمانه ﷺ من غير نكير، فدلَّ إقرارُه له على جوازه، علمًا بأنَّ الرُّوم إنَّما انتصرت في السَّنة السَّادسة من الهجرة أو ما بعدها ولم يقم دليل نسخه، ومن جهة أخرى فإنَّ الدِّين قيامه بالحُجَّة والجهاد، فإذا جازت المراهنة على آلات الجهاد فهي في العلم أولى بالجواز، وهو مذهب الأحناف[5]، وبه قال ابن تيمية[6] وارتضاه ابن القيِّم[7] رحمهم الله تعالى.

ومن بين الأقيسة الَّتي يمكن إلحاقها بالمستثنيات الثَّلاثة السَّابقة المذكورة في الحديث في جواز بذل العوض عليها: المسابقة على الأقدام مشيًا وجريًا، وقد نقل النَّووي وابن القيِّم جواز المسابقة على الأقدام بدون عوض، ومستند الإجماع أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا كان في سفر مع عائشة رضي الله عنها فسابقته على رجلها فسبقته، فلمَّا حملت اللَّحم سابقته فسبقها فقال: «هَذِهِ بِتِلْكَ السَّبْقَة»[8]، وروى مسلم أنَّ سلمةَ بن الأكوع رضي الله عنه سابَقَ رجلاً من الأنصار بحضرة النَّبي ﷺ في يوم ذي قَرَد[9].

أمَّا بَذْلُ العِوض في المسابقة على الأقدام فحكمها الجواز على الصَّحيح لما فيه من رياضةِ البدن وتمرينه على خفَّة الحركة والإسراع والنَّشاط ممَّا هو مطلوب في الغزو، ويستعان به في تحصيل المقاصد الشَّرعية وهو لا يختلف عن الخيل في قتال الفرسان وهو داخل تحت قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: 60]، قال الزُّهري: كانوا يستبقون على الخيل والرِّكاب وعلى أقدامهم[10].

وإلى تجويز البذل ذهب الأحناف[11] وبعض الشَّافعيَّة[12] وهو

(2) أخرجه أبو داود (4078)، والتِّرمذي (1784)، والحاكم (452/3)، والبخاري في «التَّاريخ الكبير» (221/82/1/1)، من حديث أبي جعفر بن محمَّد بن عليٍّ ابن ركانة عن أبيه.

(3) «الفروسيَّة» لابن القيِّم (202)، «إرواء الغليل» (329/5).

(4) أخرجه التِّرمذي (3193)، من حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما.

(5) انظر: «حاشية ابن العابدين» (403/6)، «تبيين الحقائق» للزيلعي (228/6).

(6) «الاختيارات الفقهيَّة» (160).

(7) «الفروسيَّة» لابن القيِّم (97).

(8) أخرجه أبو داود (2578)، وأحمد (27031)، وأبو نعيم في «رياضة الأبدان» (39/2)، من حديث عائشة رضي الله عنها، وصحَّحه الألباني في «الإرواء» (327/5).

(9) أخرجه مسلم (4779).

(10) «المصنَّف» ابن أبي شيبة (34242).

(11) «بدائع الصَّنائع» للكساني (3878/8)، «حاشية ابن العابدين» (402/6).

(12) «المجموع شرح المهذَّب» (27/14. 30).

فتاوى شرعية

من اختيارات ابن تيمية[13] رحمهم الله تعالى.

وعليه فإنَّ الحديث الوارد في نفي السَّبَق لا يحمل على النَّفي المطلق، ولا يكون التَّنصيص على الثَّلاثة في الحديث استثناءً وإن خرج مخرج الاستثناء، وإنَّما المقصود به التَّوكيد على معنى أنَّ أحقَّ ما بذلتم عليه السَّبَق هذه المذكورات الثَّلاثة لشمول نفعها وتمام مصلحتها، وهو لا ينفي جواز ما عداه في بذل العوض، ومثله قوله ﷺ: «**لَا رِبَا إِلَّا فِي النَّسِيئَةِ**»[14]، أي: الرِّبا الأغلظ والأشدُّ في النَّسيئة ولا ينفي ربا الفضل.

هذا، وإذا تقرَّر عدم جواز بذل العوض في المسابقات التي لم يدلَّ عليها النَّصُّ أو لم تكن في معنى النَّصِّ كالمسابقات بالكرة عمومًا فإنَّه يمنع فيها بذل العوض بأن يأخذ أحد منهما بسبب فوزه مبلغًا ماليًّا أو عينيًّا أو نسبةً يتميَّز بها الفائز عن الخاسر، سواء كان البذل من الإمام أو من أجنبيٍّ خارج عن المتسابقين أو أحد المتسابقين أو المتسابقين جميعًا ببذل جزء من ذلك الجعل.

وهذا كُلُّه فيما إذا كان المال مشروطًا للسَّابق على سبقه، وهو الجعل الواقع رهنًا على المسابقة، أمَّا إذا كانت المسابقة غير مرهونة بمالٍ وإنَّما المراد منها خصوص المسابقة واستعمالها طريقًا لجمع المال على جهة التَّبرُّع قصد المساعدة والتَّعاون طلبًا للثَّواب من الله تعالى فهو بهذه الصُّورة معدود من عقود الارتفاق وهي خارجة عن عقود السَّبق والجعل، ذلك لأنَّ التَّبرُّع والهبة يختلف من عدَّة جوانب عن عقد السَّبق، فمن حيث القصد فنيَّة المسابق أو المراهن قائمة على السَّعي لتحقيق الكسب المادِّي الدُّنيوي وتحصيل التَّفوُّق وانتزاعه بالغلبة بحيث يكون غالبًا وخصمه مغلوبًا، خلافًا للمتبرِّع أو الواهب فغرضه مساعدة النَّاس ونفعهم وإعانتهم على تحقيق حاجياتهم مع قصد الثَّواب الأخروي، ومن جهة أخرى فإنَّ حقيقة التَّبرُّع غير مبنيَّة على عمل يقوم به الغير، إذ لو كان كذلك لخرج عن حقيقة كونه هبةً وانقلب إلى عقد معاوضة، كما يظهر الفرق بينهما جليًّا من حيث التَّسمية والحكم؛ ذلك لأنَّ اسم السَّبق والرِّهان والخطر والجعل غير الهبة والتَّبرُّع والصَّدقة ولكلٍّ منهما أحكام مغايرة للأخرى ومخالفة لها.

وبناءً على ما تقدَّم فإنَّ الصُّورة المذكورة في السُّؤال لا يحكمها عقد السَّبق وإنَّما تندرج ضمن عقود التَّبرُّعات باتِّخاذ هذه المسابقات. وهي جائزة في الأصل. وسيلة تبرُّع ونفع النَّاس، إذ حقيقة التَّبرُّع إخراج الإنسان ماله لغيره بقصد الإعانة دون طلب العوض وهو من عقود الارتفاق، وما كان داخلًا تحتها فالأصل فيه الحِلُّ والجواز، بينما حقيقة السَّبق المتمثِّل في بذل مال على عمل أو نفع على وجه العوض وهو أقرب إلى عقود المعاوضات من غيرها فافترقا.

وتقرير حكم الجواز لا ينبغي أن يزاحمه ما يتنافى وأحكام الشَّرع ممَّا تقدَّم ذكره فضلاً عن كشف العورات وضياع الصَّلاة والأوقات وحدوث الكلام القبيح من اللَّاعبين، على أن تكونَ الدَّورة الرِّياضيَّة سبيلاً ارتفاقيًّا محقِّقًا للغرض الَّذي أقيمت الدَّورةُ من أجله، كما ينبغي أن يسودَ الجوَّ الرِّياضي روحُ التَّسامح والتَّآلف والتَّآخي المستوحاة من المُثُل الإسلاميَّة العُلْيَا بتطهير النَّفس والضَّمير ممَّا يُعكِّر صَفْوَهُ من الضَّغينة والحقد والتَّنافر المتولِّد من مثل هذه المنافسات بين الغالب والمغلوب.

وحاصل نصيحتي عدمُ الإكثار من الدَّورات الرِّياضيَّة بالاعتبار السَّابق إلاَّ عند الحاجة، لأنَّها مضيعة للوقت النَّفيس المستهلَك في غير ما خُلِقَ المرءُ من أجله، كما تجرُّ مثل هذه المنافسات الكرويَّة. بطريقٍ أو بآخَرَ. إلى محرَّم أو مكروه سبقت الإشارة إلى بعضه في ضابط المسابقات إمَّا حالاً أو مآلاً.

وعلى المسلم أن يشتغلَ بمعالي الأمور، ويحرصَ على ما ينفعه في دنياه وآخرته، وإذا حصلتْ مبارياتٌ كرويَّةٌ بين المساجد؛ فحريٌّ باللاَّعب أن يستبقِيَ كرة القدم في قدمه، ويعملَ على أن لا ترتقِيَ إلى قلبه.

والله أعلم بالصَّواب، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين، وصلِّ اللَّهم على محمَّد وعلى آله وصحبه، والتَّابعين لهم بإحسان إلى يوم الدِّين، وسَلِّم تسليمًا.

(13) «الاختيارات» لابن تيمية (160).

(14) أخرجه البخاري (2179)، ومسلم (1596) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما.



الشيخ عبد العزيز بن الشيخ الهاشمي

شيخُ الطريقة القادرية في شمال إفريقيا يُعلنُ: (دعوةُ العلماء السَّلفيِّينَ حقٌّ)

سمير سمراد
إمام خطيب ـ الجزائر

الشَّيخ عبد العزيز بن الهاشمي، هو الابن الثَّالث للشَّيخ الهاشمي، وابنُ الطَّريقة القادريَّة ثمَّ شيخها فيما بعدُ.

الشَّيخ الهاشمي؛ رئيس الطَّريقة القادريَّة

أبوه الشَّيخ محمَّد الهاشمي بن إبراهيم؛ رئيس الطَّريقة القادريَّة المشهورة بالوادي، وكان الشَّيخ إبراهيم ـ جدُّ المترجَم ـ قد هاجر «إلى الجريد بالجنوب الغربيِّ التُّونسيِّ واستقرَّ بنفطة لينشط ضمن الزَّاوية القادريَّة... وقد أنجب هناكَ ابنه محمد الهاشمي سنة 1853 الَّذي رجع إلى أرض الوطن سنة 1892 حيث أسَّسَ زاوية قادريَّة بالبيَّاضة على غرار أجداده ليواصل نشاطه الدِّيني والفكري هناك»[1]، وتقول مصادرُ أخرى: إنَّهُ نزح من تونس إلى الجزائر واستقرَّ بوادي سوف في نهاية القرن الماضي وأسَّس بالقرب من الوادي سنة 1887م زاوية بالمكان المسمَّى «عمِّيش»، وبهذا الأخير وُلد عبد العزيز سنة 1898م[2]. والَّذي ذكره الأستاذ الحسن فضلاء رحمه الله، أنَّهُ: ولد في «البيَّاضة»، بلدية وادي سوف، سنة 1899م.[3].

يقول ابن باديس في مقالته:

«**الشَّيخ عبد العزيز بن الهاشمي والإصلاح**»: «كان الشَّيخ الهاشمي شيخ الطَّريقة القادرية رحمه الله رجلاً قويًّا ذكيًّا واسع الحيلة بعيد النَّظر، فأدرك بثاقب رأيه أنَّ ما عليه الطُّرقية من الجهل والجمود لا يمكن أن يستمرَّ طويلاً في عصر العلم والنُّهوض، وأنَّ المستقبل للعلم لا محالة، فولَّى وجهه شطر العلم، وقَدَّم أبناءه لجامع الزَّيتونة المعمور، وحبس أملاكه كلَّها على العلم، واشترط في حبسه أن تعمر زواياه بأهل العلم من أئمَّة ومدرِّسين ومتعلِّمين، واشترط في أبنائه أن لا حظَّ لأحدهم في الحبس إلاَّ إذا حصل على شهادة العالمية «التَّطويع» من جامع الزَّيتونة، وجعل الإشراف على الحبس لنظارة جامع الزَّيتونة..»[4].

الشَّيخ عبد العزيز بن الشَّيخ الهاشمي وأخوه الشَّيخ محمَّد الصَّالح

كانَ الشَّيخ عبد العزيز قد «تعلَّم القرآن وحفظه، وتعلَّم مبادئ في اللُّغة والدِّين في زاويتهم تحت كنف والده»[5]، ثمَّ سافر إلى تونس للدِّراسة في جامع الزَّيتونة سنة 1913م، وحصل على شهادة التَّطويع العالميَّة في شهر يونيو سنة 1923م[6]، «عاد إلى الجزائر وبعد عودته بـ[نحو] ثلاثة أشهر توفِّي والده الشَّيخ الهاشمي في 15سبتمبر1923، رحمه الله»[7]، وتولَّى مشيخةَ القادريَّة الابنُ الأكبر عبد الرَّزَّاق، الَّذي ما لَبِثَ أن توُفِّيَ هو كذلك بعد

(1) مقال: «جهاد الشيخ عبد العزيز الشريف ضد قوات الاستعمار الفرنسي/ثورة الوادي لعام 1938م»، نُشر في موقع:
(2) «شخصيَّات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر/ عبد العزيز بن الهاشمي والإصلاح» ص 46 للدُّكتور أحمد صاري.
(3) «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (143.139/3) للحسن فضلاء.
(4) «آثار الإمام ابن باديس» (397/5).
(5) «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (139/3) للحسن فضلاء.
(6) «شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر/ عبد العزيز بن الهاشمي والإصلاح» ص47 للدُّكتور أحمد صاري.
(7) «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (139/3) للحسن فضلاء.

وقت قصيرٍ من وفاة والده[8]؛ توفِّيَ في شهر ديسمبر 1923م[9].

يقول ابن باديس: «...انتهى أمر الحبس إلى الشَّيخ عبد العزيز بن الشَّيخ الهاشمي بمقتضى شرط المحبس بعد وفاة أخيه الأكبر، وتولَّى مشيخة الطَّريقة القادريَّة، ودخل معه في الحبس أخوه الشَّيخ محمَّد الصَّالح لتحصيله على شهادة العالِميَّة، فكان الرَّجلان بما لهما من العالِميَّة بعيدين عن كلِّ تلك المواقف العدائيَّة الَّتي وقفها شيوخ الطُّرق الأخرى أو أُوقِفُوا فيها ضدَّ جمعيَّة العلماء»[10].

دخول «الإصلاح» إلى «سوف» وقُرَاهَا

يقول الإمامُ ابن باديس: «..لمَّا ارتفعت دعوة الإصلاح بالجزائر كان في طليعة رجالها نبهاء من أبناء سوف المثقَّفين، وعلمائها المستنيرين، فدَعَوا إخوانهم بـ«سوف» إلى كتاب الله وسنَّة رسول الله ﷺ وما كان عليه السَّلف الصَّالح من الصَّحابة والتَّابعين وأتباع التَّابعين، والخلف النَّاصح من أئمَّة المسلمين...»[11].

انضمام الشَّيخ عبد العزيز إلى جمعيَّة العلماء

في المؤتمر السَّنوي العامِّ لجمعيَّة العلماء المنعقد في يوم الجمعة 19 رجب 1356/ 24 سبتمبر 1937م، وفي اليوم الَّذي يليه، أُعلنَ عن انضمام الشَّيخ عبد العزيز إلى الجمعيَّة، حيثُ «عهد الأستاذ الرَّئيس ـ ابن باديس ـ إلى داعية الإصلاح الأستاذ الطَّيِّب العقبي بتقديم الشَّيخ عبد العزيز بن الشَّيخ الهاشمي إلى الحاضرين لإلقاء كلمات فقام الأستاذ العقبي وقال: أيُّها الإخوان، إنَّكم تعرفون قبل اليوم الشَّيخ عبد العزيز شيخًا من شيوخ الطُّرق أمَّا اليوم فيجب أن تعرفوه بأنَّه جنديٌّ من جنود الإصلاح وعضو من أعضاء جمعيَّة العلماء يعمل على نشر مبادئها ويصدُّ من يريد الاعتداء عليها...»، ثمَّ انتخبت الإدارة الجديدة للجمعيَّة، فكان الشَّيخ عبد العزيز عضوًا استشاريًّا فيها[12].

وفدُ العلماء في «سوف» و«بسكرة»، ومظاهرُ قُوَّة «الإصلاح»

دعا الشَّيخ عبد العزيز وفدًا من جمعيَّة العلماء لزيارة «سوف» وهم الشُّيوخ: ابن باديس، ومبارك الميلي، والعربي التَّبسِّي، ومحمَّد خير الدِّين.

زارَ وفدُ الجمعيَّة قرى «سوف» في شوال 1356هـ ديسمبر 1937م، وعلى إثْرِ ذلك حدثت بها حركةٌ غير عادية، وظهر الإصلاح فيها أقوى ما يكون. كما قال ابن باديس ـ؛ وذلك بعد الانقلاب الخطير الَّذي وقع؛ فقد تحوَّل الشَّيخ عبد العزيز ابن الهاشمي من شيخ الطَّريقة القادريَّة إلى عالم مصلح؛ فجاهر في أتباعه وقومه، أثناء اجتماع الوفد في «قمار»: «**إنَّ الطُّرق بدعة لا أصل لها في الدِّين فَحَسْبُكُمُ التَّمسُّك بالكتاب والسُّنَّة**»[13]، وقد تكلم قبله وفدُ العلماء، ونقل كلَّ ذلك الشَّيخ حمزة بوكوشة ـ العضو الإداري لجمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريِّين ـ في: «أحاديث جمعيَّة العلماء وحوادثها: وفد جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريِّين بوادي سوف ونواحيها»؛ قال:

«**عقدنا اجتماعنا بـ«قمار»**....

ألقى الشَّيخ **ابن باديس** درسًا في تفسير قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: 21]...،

ثمَّ تكلَّم الشَّيخ **خير الدِّين** كلمة في الاقتداء والائْتِسَاء وحثَّ النَّاس على مدارسة سيرة الرَّسول ﷺ وسيرة السَّلف الصَّالح فإنَّهم خيرُ قدوة لمن اقتدى،

ثمَّ ألقى الشَّيخ **العربي التَّبسِّي** درسًا في قوله ﷺ: «**مَن أَحدَثَ في أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيس منه فهو ردٌّ**»[14]،

وتبعه الشَّيخ **مبارك الميلي** بدرس في قوله ﷺ: «**قُلْ آمَنْتُ بالله ثُمَّ استَقِم**»[15]، وحَمَلَ فيه على الطُّرق وشبهاتها حتَّى

(8) «شخصيَّات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر/عبد العزيز بن الهاشمي والإصلاح» (ص47) للدُّكتور أحمد صاري، وعند الحسن فضلاء: أنَّ الشَّيخ عبد العزيز هو الابنُ الأكبر، والمثبتُ أعلاهُ هو الأصوب، والله أعلم.

(9) مقال: «جهاد الشَّيخ عبد العزيز الشَّريف ضد قوات الاستعمار الفرنسي/ثورة الوادي لعام 1938م»، نُشر في موقع: http://mokhtari.over-blog.org

(10) «آثار الإمام ابن باديس» (5/397).

(11) «الآثار» (5/159.160).

(12) «الشهاب» م13 ج8 شعبان1356هـ أكتوبر 1937م ص346.

(13) «البصائر» العدد (96/ ص3) 19 ذي القعدة 1356هـ، موافق21 جانفي1938م.

(14) رواه «البخاري» (2697)، و«مسلم» (1718).

(15) رواه «مسلم» (38).

أقنع الحاضرين بأن لا طرقيَّة في الإسلام.

ثمَّ قال الشَّيخ ابن باديس: لا تأسفوا أن فاتتكم الطُّرق فإنَّ لكم طريقةً من أجمل الطُّرق قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: 153]، ثمَّ أخذ يفسِّر الآية تفسيرًا مُحكَمًا.

ثمَّ قام الشَّيخ عبد العزيز وقال: «إنَّ الطُّرق بدعة لا أصل لها في الدِّين فحسبكم التَّمسُّك بالكتاب والسُّنَّة...» اهـ.

ثمَّ انتقل هذا الوفدُ إلى منطقة «الزِّيبان»؛ وعاصمتها بلدة «بسكرة»، وفي إحدى بلدانها، أعلن شيخ الطَّريقة القادريَّة، مرَّةً أخرى في جموع النَّاس؛ أن: «**لا طرقيَّة في الإسلام**»، يقول الشَّيخ أحمد بن الدَّرَّاجي ـ المعلِّم بمدرسة بسكرة ـ في مقالته: «وفد جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريِّين بالزِّيبان»: «يوم الأحد 9 شوَّال توجَّه وفد جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريِّين إلى بلدة طولقة بعد عودته من رحلته إلى وطن سوف.... كان موعد اجتماع الأمَّة البسكريَّة برجال الجمعيَّة «بالبارك» محلِّ الرِّياضة **وقد حضر هذا الاجتماع ما يزيد على ثلاثة آلاف نسمة**، وافتتح الجلسة حضرة الأستاذ الرَّئيس الشَّيخ عبد الحميد بن باديس بخطاب حارٍّ شديد اللَّهجة نَوَّهَ فيه بمجد العروبة والإسلام وأثَّرَ تأثيرًا بليغًا في نفوس الحاضرين **ثمَّ تكلَّم بعده الشَّيخ عبد العزيز بن الشَّيخ الهاشمي بكلمات بليغة مؤثِّرة حثَّ فيها النَّاس ودعاهم إلى التَّمسُّك بالكتاب والسُّنَّة والعمل بهما وممَّا حواه كلامه العذب: «أن لا طرقيَّة في الإسلام»....**»[16].

الشَّيخ عبد العزيز بن الهاشمي يَعْمُرُ زواياه بالعلم ويستقدمُ لها العلماء

يقول ابن باديس: «...أخذ يُكَرِّرُ الاجتماعات في نواحي «سوف» بأتباع زواياه يحثُّهُمْ على العلم ويرغِّبُهُمْ في التَّعلُّم ويُبَيِّنُ لهم أنَّ الانتساب إلى الشَّيخ عبد القادر الجيلاني ـ وهو من أئمَّة العلم في مذهب أحمد بن حنبل ـ لا يمنع من العلم والأخذ بأسباب العلم...»[17].

انقلبت الزَّاوية القادريَّة رأسًا على عقب من زاوية طرقيَّة إلى معهد إسلاميٍّ علميٍّ، ومركزٍ يمثِّل جمعيَّة العلماء في الصَّحراء[18]:

«فبعد مغادرة وفد العلماء، وقع احتفالٌ إصلاحيٌّ كبيرٌ، في الواد «سُوف»، ضَمَّ شُعَبَ «سُوف» التِّسع، وكثيرًا من الأعيان والوجهاء ـ أكثرَ من عشرة آلاف نسمة ـ، بمناسبة **افتتاح الدُّروس العلميَّة بالزَّاوية القادريَّة**، وقرَّروا في اجتماعهم هذا تكوينَ جامعة لشُعَب «سُوف» مركزها الواد، وكوَّنوا إدارتها، وكان نائب رئيس هذه الجامعة: الشَّيخ عبد القادر الياجوري»[19]، يقول ابن باديس: «شرع الشَّيخ عبد العزيز بعمارة زواياه بالعلم، وعيَّن رجلين للتَّعليم من أبناء سوف المتخرِّجين من جامع الزَّيتونة المعمور هما الشَّيخ علي بن سعد والشَّيخ عبد القادر الياجوري»[20].

شيخُ الطَّريقة القادريَّة يُسمِعُ رؤساءَ الطُّرق كلمةَ الحقِّ

عقد رؤساء الطُّرق والزَّوايا مؤتمرَهم في عاصمة الجزائر يومَ 15 أفريل 1938م، والأيَّامَ الَّتي تليه: 16 و17 و18، «وقدم إلى الجزائر يوم الاثنين 19 الشَّاب النَّاهض الشَّيخ محمَّد الصَّالح ابن الشَّيخ الهاشمي ليشترك في هذا المؤتمر نيابةً عن أخيه الشَّيخ عبد العزيز رئيس الطَّريقة القادريَّة بشمال إفريقيا الَّذي استدعي للحضور، **فألقى خطبةً رائعةً، بيَّن بها أن لا طريقة إلاَّ طريقة السُّنَّة وذكر فضل علماء الإصلاح على الجزائر في بثِّ الهداية الإسلاميَّة الحقَّة**»[21]، وقد نَشرت «البصائر»، نصَّ الخطاب الَّذي ألقاه الشَّيخ محمَّد الصَّالح في مؤتمر الطُّرقيَّة، ممَّا جاء فيه:

■ **النِّسَبُ الطُّرُقيَّةُ الطَّائفيَّة فَرَّقَتْ المسلمين:**

1 ـ جاهرهم بالانتقاد على كون اجتماعهم واتِّحادهم ـ جامعة اتِّحاد الزَّوايا ـ، خاصًّا بأصحاب الطَّرائق وأرباب الزَّوايا دون غيرهم من العلماء؛ فقال:

«حزنًا كثيرًا لقصور هذا الاتِّحاد ـ إن تحقَّق ـ على طائفة من

(16) «البصائر» العدد (97/ص3) 26 ذي القعدة 1356هـ، موافق 28 جانفي 1938م.
(17) «آثار ابن باديس» (5/ 398،397).
(18) «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (3/ 140) للحسن فضلاء.
(19) «البصائر» العدد (102).
(20) «الآثار» (5/ 398).
(21) «البصائر» العدد (111) 28 صفر 1357هـ، 29 أفريل 1938م ص6.

المسلمين دون طوائف، وددنا لو كان هذا العنوان عامًّا في مدلوله شاملاً للمسلمين كلِّهم».

«إنَّ هذا الاجتماع سوقٌ أقمناه ومعرضٌ نَظَّمْنَاهُ فكان أوَّل عيوبه ونقائصه ما في اسمه من تخصيص النِّسبة وقصور الإضافة»، «أيُّها الإخوان: لو كان هذا الاجتماع دنيويًّا عُقد باسم الدُّنيا ولغرض من أغراض الدُّنيا ـ لكان للتَّخصيص فيه معنى، ولكان للطَّائفيَّة فيه عذر مقبول وغرض معقول؛ لأنَّ الناس فرَّقت بينهم أسباب الدُّنيا ومصالحها واختلفت بسببها آراؤهم واختصاصاتهم فيها... ولكن هذا الاجتماع دينيٌّ في معناه ومبناه وبأسبابه ودواعيه وليس في الدِّين حرفَة ينفرد أهلها برأي ولا تجارة ينفرد أصحابُها ببضاعة، **وإنَّما هو كتاب الله منه المبدأ وإليه المصير، وعليه قامت سنَّة نبيِّنا ﷺ، وعليه استقام هدي سلفنا الصَّالح رضوان الله عليهم وبهذه الثَّلاثة قامت الحجَّة علينا وبهذه الثَّلاثة يجتمع شملنا وتتَّفق كلمتنا وإلى هذه الثَّلاثة يجب أن تكون دعوتُنا جهارًا بلا إسرار، وجمعًا بلا تفرُّق**، فما أحقَّ هذا الاجتماع بأن تكون دعوته الجفلى وأن يكون باسم الأمَّة الإسلاميَّة كلِّها لتجتمعَ على الكلمة الجامعة من كتاب ربِّها وسنَّة نبيِّها وما أحقَّه أن يزدانَ بحضور علماء الوطن الجزائري الَّذين هم زينته ومفخره»[22].

■ **رؤساءُ الطُّرُقِ يُفَرِّقُونَ جماعةَ المسلمين بِنَبْزِ العلماء المصلحين:**

2 ـ وانتقد عليهم أن يكون اجتماعهم اجتماعًا: «تثور فيه الحقود وتنمو بسببه الضَّغائن من طائفة من المسلمين على طائفة أخرى»[23]، مُشيرًا إلى ما كان في هذا الاجتماع من التَّعرُّض للعلماء المصلحين والتَّهجُّم عليهم، ونَبْزِهم بالوهَّابيَّة.

■ **زُعَمَاءُ الدِّينِ الطُّرُقِيِّ وغِشُّهُم للمسلمين:**

3 ـ دعاهم إلى أن يكون اجتماعهم اجتماعًا حقيقيًّا، تُبذَلُ فيه النَّصيحة، وتُسمعُ الحقيقة، فقال:

«لا قيمة لاجتماعنا هذا إلاَّ إذا كان معرضًا للحقائق تجلَّى فيه بكلِّ صراحة، وملجأً لكلمة الحقِّ تلقى فيه بكلِّ حريَّة، وإنَّه لا مكافأة لما صرفه الإخوان الحاضرون من وقت ومال في سبيل هذا الاجتماع، إلاَّ ما يسمعونه من حقائق ويتبادلونه من نصائح دينيَّة وإرشادات ويقومون به جميعًا من واجب التَّواصي بالحقِّ والتَّواصي بالمرحمة والتَّآمر بالمعروف والتَّناهي عن المنكر، فإن لم يكن هذا فلنعلم أنَّنا غششنا أنفسنا وغششنا المسلمين وأسخطنا الله ورسوله وصالحي المؤمنين»[24].

■ **الافتراقُ الطُّرُقيُّ بلاءٌ على الأمَّة:**

4 ـ جاهرهم بأنَّ من أعظم أسباب ما أصاب هذه الأمَّة من البلاء: «تفرُّق النِّسَب برؤسائها الدِّينيِّين، هذا البلاء الَّذي طال عليه الأَمَدُ حتى استعصى على العلاج، فالواجب على كلِّ من في قلبه مثقال ذرَّة من الرَّحمة بهذه الأمَّة أو الشَّفقة عليها أن يُعين على إزالة أسباب هذا البلاء»[25].

■ **هَدْمُ البدع واجبٌ دينيٌّ:**

5 ـ جاهرهم بأنَّ دعوة العلماء المصلحين حقٌّ، فقال:

«إنَّ أحقَّ النَّاسِ بالدَّعوة إلى هذا هم العلماء وقد كانت هذه الدَّعوة وكانت صارخةً مستفزَّة فثقلت على النُّفوس وقوبلت من بعضها بالاشمئزاز والتَّنفير، ومن بعضها بالرَّدِّ والصَّدِّ. ولا نخفي الحقَّ إذا قلنا إنَّ هذا الاجتماع أثرٌ من آثار تلك الدَّعوة، لكنَّ الحقَّ الَّذي يجب أن يقال في هذا المقام هو أنَّ تلك الدَّعوة في ذاتها حقٌّ لأنَّها تدعو إلى كتاب الله وهو حقٌّ وإلى سنَّة رسوله وهي حقٌّ وإلى هدي السَّلف وهو حقٌّ، وإلى هدم البدع الَّتي لابست الدِّين وهي موجودة حقًّا وكثيرة حقًّا وكلُّها شرٌّ حقًّا وباطلةٌ حقًّا، والواجب على كلِّ مسلم هدمُها حقًّا».

■ **إيثارُ حقوقِ الدِّينِ على حقوق النَّفس:**

6 ـ دعاهم إلى ترك حظوظ النَّفس وإيثارها على قبول الحقِّ الَّذي دعا إليه العلماء، فقال:

«ومن الحقِّ الَّذي يجب أن يقال في هذا المقام أنَّ ثقلَ تلك الدَّعوة على بعض النُّفوس ليس من طبيعة تلك الدَّعوة وإنَّمَا هو من طبيعة تلك النُّفوس والواجب علينا قبل كلِّ شيء أن نفرِّقَ بين ما هو من حقوق الدِّين، وبين ما هو حظٌّ من حظوظ النَّفس وأن نربِّي أنفسنا على إيثار حقوق الدِّين على حظوظ النَّفس، وأن نربِّيها على الاتِّساع والإذعان والرُّجوع للحقِّ وأن نربِّي آذاننا على سماع كلمة الحقِّ، وألسنتنا على النُّطق بها».

(22) «البصائر» العدد (112) 6 ربيع الأول 1357هـ، 6 ماي 1938م (ص7،6).
(23) المصدر نفسه.
(24) المصدر نفسه.
(25) «البصائر» العدد (113) 13 ربيع الأول 1357هـ، 13 ماي 1938م (ص3،2).

■ **الزَّوايا الطُّرُقيَّة وغاياتها، كفى بهم شهداء على أنفسهم:**

نشر ابنُ باديس **للحقيقة والتَّاريخ** ـ كما قال ـ القانونَ الأساسي لجمعيَّة الزَّوايا الطُّرقيَّة، وذلك: «ليطَّلع عليه القرَّاء ويعرفوا منه غاية هؤلاء النَّاس وما إليه يعملون»، يقولُ كبراءُ الزَّوايا عن غايتهم وغاية جامعتهم: «غاية هذه الجمعيَّة هي أوَّلاً المحافظة على نفوذ الزَّوايا والطُّرق وعلى شهرتها وسمعتها ومكانتها»، وعلَّقَ ابنُ باديس بقوله: «النُّفوذ! والشُّهرة! والسُّمعة! والمكانة! فهل أَبْقَوْا من مظاهر السُّلطان والسِّيادة والكبرياء والعظمة والاستيلاء شيئًا؟ هذه هي غايتهم: أن يَبْقَوْا سادةً على النَّاس، وأن يُبْقُوا النَّاسَ مُسْتَعْبَدِينَ لهم. أين هي التَّربية؟ أين هو التَّعليم؟ أين هو نشر الإسلام؟ أين هي مقاومة المفاسد والشُّرور؟ أين هو الوعظ والإرشاد؟ هذه كلُّها أمورٌ لا ذكر لها عندهم؛ لأنَّهم يخافون منها على سلطانهم....»[26].

■ **لا طُرُقِيَّةَ في الإسلام:**

7 ـ وأخيرًا صارحهم: بأن لا طرقيَّة في الإسلام؛ فقال:

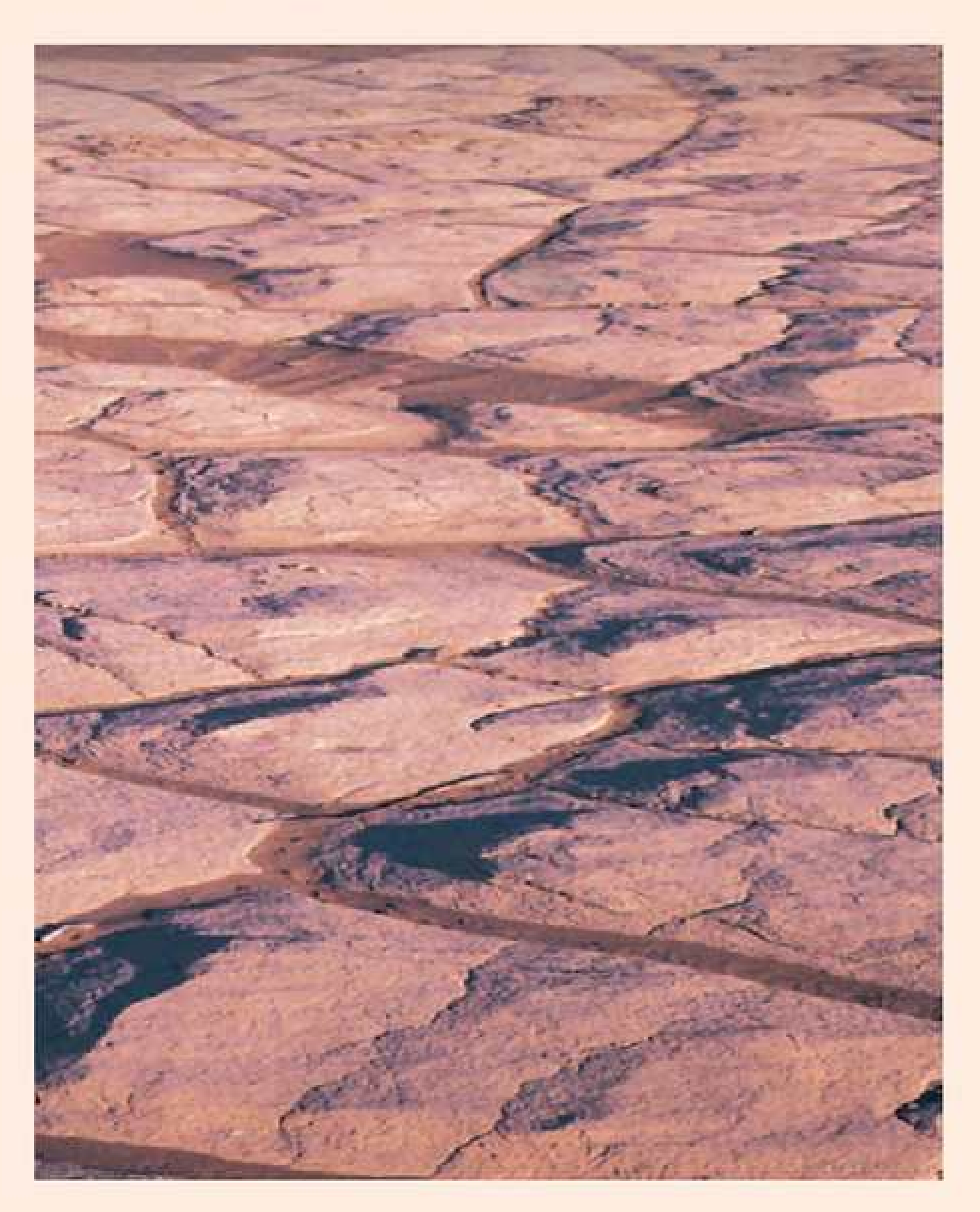
«أيُّها الإخوان: **أنا طُرُقيٌّ وِرَاثَةً وابنُ زاوية عريقٌ في نسبة الزَّاوية والطُّرقيَّة إلى بضعة أجداد في التَّاريخ، وعندي من العلم ما أُفَرِّقُ به بين الحقِّ والباطل على الأقلِّ، ومن المعرفة العامَّة ما أُمَيِّزُ به بين الخير والشَّرِّ وبين المقبول والمردود وإنِّي أدين الله الَّذي أؤمنُ بلقائه بأن لا طرقيَّة في الإسلام ولا زاوية في الإسلام ولا طائفيَّة في الإسلام، وبأنَّه إن كان في هذه الزَّوايا وهذه الطُّرق خيرٌ فإنَّ شرَّها يذهب بخيرها** وبأنَّ من آثارها النَّفسيَّة الَّتي لا ينكرها إلاَّ أعمى البصيرة أنَّها فرَّقت كلمة المسلمين، لا أتكلَّم عن غائبٍ ولا عن مجهولٍ وإنَّما أتكلَّم عن مشاهدة وعيان وأعبِّرُ عن وجدان لا تزال آثاره في نفسي الَّتي بين جنبيَّ لولا أن عصمني الله بما وفقني إليه من العلم».

■ **دعوةُ العلماء السَّلفيينَ حقٌّ:**

8 ـ وخَتَمَ شيخُ ورئيسُ الطَّريقة القادريَّة بشمال إفريقيا، خطابَهُ بثناء على دعوة العلماء وتبيين لمراميهم النَّبيلة؛ فقال:

«إنَّني أدين الله أيضًا أنَّ الحركة القائمة إنَّما هي ضدُّ البدع المحدثة في الدِّين وإنَّها إن أَتَتْ فإنَّما تأتي على الباطل أمَّا الحقُّ فهو ثابتٌ بإذن الله محفوظٌ بحفظ الله، وإنِّي فهمت ولا زلتُ أفهم من أقوال القائمين بها وأعمالهم ومراميهم أنَّها **ليست موجَّهة لهدم الزَّوايا وإنَّما هي مُوَجَّهة لإصلاحها.**

عبد العزيز بن الهاشمي» اهـ[27].



□ **لا زاوية طُرُقيَّة في الإسلام:**

تقدَّمَ أنَّ الشَّيخَ عبد العزيز بن الهاشمي شرع في «عمارة زواياه بالعلم، وعيَّن رجلين للتَّعليم من أبناء سوف المتخرِّجين من جامع الزَّيتونة...»».

وتِبْيَانًا للجملة الأخيرة من خطاب شيخ الطَّريقة القادريَّة ورئيس زواياها في شمال إفريقيا، أقولُ:

الزَّوايا إن كانت تعلِّمُ العلم الصَّحيح، وتُرَبِّي على الكتاب والسُّنَّة وهدْي سلف الأمَّة، فنعمَّا هيَ، أمَّا إن كانت زوايا طرقيَّة؛ تُعطي العهود، وتُلقِّنُ الأوراد البدعيَّة، ويكونُ المُريدُ فيها خاضعًا مطيعًا لشيخها ـ الجاهل ـ، فهذا الَّذي هَدَمَهُ المصلحون، وقال فيه ابنُ باديس: «**الأوضاعُ الطُّرقية بدعةٌ لم يعرفها السَّلَف،** ومبناها كلُّها على الغلوِّ في الشَّيخ، والتَّحيُّز لأتباع الشَّيخ،

(26) «آثار الإمام ابن باديس»، «الزوايا وغاياتها كفى بهم شهداء على أنفسهم» (162.161/5).

(27) «البصائر» العدد (113) 13 ربيع الأول 1357هـ، 13 ماي 1938م (ص 3.2).

وخدمة دار الشَّيخ، وأولاد الشَّيخ، إلى ما هناك من استغلال... ومن تجميد للعقول وإماتة للهمم وقتل للشُّعور، وغير ذلك من الشُّرور»[28].

تنبيهٌ: بعضُ الإصلاحيِّين العصريِّين يُؤْثِرُ التَّعبير - عن قصد أو غير قصد -: بأنَّ المصلحين لا زالوا يثنُون على زوايا العلم والقرآن، وإنَّما كانوا يُحاربون زوايا الشَّعوذة والخرافة والتَّدجيل، والشَّطح والبندير، وقد يبدُو كلامُهم هذا لأوَّل وهلة صحيحًا، لكن إذا استحضرنا دفاعهم عن **الطُّرُق السُّنِّيَّة!** - في زعمهم -، أدركنا أنَّهم يُدخلون في جملة الثَّناء: الزَّوايا الطُّرقيَّة، إذا خَلَتْ(!) - عندهم - من مظاهر التَّدجيل والابتزاز... الخ، وفي ترديد العلماء ورفعهم شعارَ: **لا طرقيَّة في الإسلام**، ردٌّ على مزاعمهم وتفنيدٌ لادِّعاءاتهم، وأقولُ: **التَّعبيرُ الصَّوابُ والدَّقيق**: أنَّ المصلحين كما حاربوا زوايا الشَّطح والبندير، والشَّعوذة والخرافة، حاربوا زوايا الطُّرقيَّة، وأنكروا أوضاعها البدعيَّة؛ من النِّسبة للشَّيخ، وإعطاء العهد، وتلقين الورد، والمواظبة على وظائفها المخترَعة؛ كتحديد الأذكار بعَدَدٍ وتوقيت وترتيب الثَّواب عليها... الخ، فالَّذي نمدحُهُ ونحمدُهُ: زوايا العلم والقرآن، الَّتي لا تنتمي إلى طريقة ولا يَحْشُرُ الشَّيخُ إليها الطَّلبةَ ويتَّخذُهُم مُريدينَ لهُ، يَفرضُ عليهم الخضوع والطَّاعةَ والاستسلام!! - ترغيبًا وترهيبًا -.

عَسْكَرُ فرنسا يُرهبُ المصلحين في «سوف» ويَعتقلُ الشَّيخ عبد العزيز بن الهاشمي

وهل أتاك نبأُ ما أقدمت عليه السُّلطات الفرنسيَّة في وادي سوف 18 أفريل 1938م، من التَّرويع الفظيع، ومحاصرة البلد، وتطويقه بالجنود والمدافع، وصُبَّ على أهله العذاب، وذاقوا ما ذاقوا، في أيَّام سوداء حالكة، سببها مكيدة دُبِّرت لأهل سوف، بعد نهضتهم العلميَّة الدِّينيَّة، فتعاقد الكائدون على قتل تلك الحياة الدِّينيَّة العلميَّة في تلك الدِّيار، وسيق النَّاس إلى السُّجون، والبحث، وخُلِّيَ من خُلِّي، وحُكِمَ على عددٍ وفير منهم بالنَّفي والأعمال الشَّاقَّة، في محاولة «لاضطهاد شُعَب جمعيَّة العلماء والتَّضييق عليهم وإكراههم على التَّخلي عن الجمعيَّة»[29]، وأُلقي القبض على «أربعة من أعضاء جمعيَّة العلماء المسلمين الجزائريِّين دون جُرْم معلوم، ودون أن يقدَّموا إلى المحاكمة، أربعة من العلماء»، وهم: الشَّيخ عبد العزيز ابن الهاشمي، والشَّيخ علي بن سعد والشَّيخ عبد القادر الياجوري والسَّيِّد عبد الكامل بن الحاج عبد الله، وقد طال سجنهم، ولم يتوقَّف ابن باديس عن التَّذكير بقضيتهم.

قال أحد كتَّاب «البصائر»[30]: «لا سبب في الواقع لكلِّ ما حدث - رغم ما أشيع[31] - سوى أنَّ طائفة المستغلين رَاعَهَا ما شاهدته من نشاط حركة الإصلاح وازدهارها **وعلمت أنَّها سَتَجْتَاحُ باطلَهَا وتُرَّهَاتِهَا وتقضي على ما بقي لها عند الأمَّة من سمعة ونفوذ..**»، كما كان دخول الشَّيخ عبد العزيز ابن الهاشمي في الجمعيَّة: «**أكبر ضربة أصابت المضلِّينَ الجامدين في تلك النَّواحي والرُّبوع**»[32].

لم يُرضِ الاستعمار هذا التَّحويل الجذري المفاجئ للزَّاوية القادريَّة، فـ«دعا الحاكم العسكريُّ الشَّيخَ عبد العزيز في شأن التَّعليم ولزوم طلب الرُّخصة لذلك وردَّ الشَّيخ بأنَّ الزَّوايا من قديم الزَّمان تعلِّم بدون رخصة، وتكرَّرت الدَّعوة، وتكرَّر الأخذ والرَّدُّ في الأمر»[33]، فانضمَّ الشَّيخ عبد العزيز إلى حركة الاحتجاج - الَّتي قادها ودعا إليها العلماء الأحرار - على قانون 8 مارس 1938م المشؤوم، الَّذي كان الغرض منه عرقلة سير المدارس العربيَّة الإسلاميَّة الحرَّة، لكنْ احتجاجُ شخصية بمقام شيخ القادريَّة، وخروجه في جمع من المتظاهرين أمام دار الحاكم العسكري، وتعبئته سكَّان الوادي ضدَّ السِّياسة الاستعماريَّة[34]، جعل الاستعمار يصوِّبُ مدافعه القويَّة المُرهبة ليُدمِّرَ هذه القوَّة ويكبحَ جِماحها، نعم! دخل الشَّيخ عبد العزيز إلى الإصلاح مزهوًّا بقيمته العلميَّة، وجاهه العريض، وقوَّته في السَّيطرة على

(28) «آثار الإمام ابن باديس» (155/5).

(29) «الآثار» (394/5).

(30) «البصائر» العدد (164)، (ص:4).

(31) الذي أشيعَ هو: سجنُ الشيخ عبد العزيز في جماعة من العلماء، بتُهْمَةِ الإعدادِ والدعوة للثورة على فرنسا.

(32) «البصائر» العدد (112) (ص3).

(33) «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (140/3) للحسن فضلاء.

(34) «شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر/عبد العزيز بن الهاشمي والإصلاح» (ص 54) للدُّكتور أحمد صاري.

من حوله، فخاف الاستعمار من عواقبه»[35]، فكان ما كان.

محنته

سُجن الشَّيخ عبد العزيز وإخوانه العلماء الأحرار في سجن قسنطينة العسكري بالكُدية، وفيه ألمَّ به المرض، وصار من حينٍ لآخر يُنقلُ من السِّجن إلى المستشفى للعلاج، يقول ابن باديس: «آه لو رأيتم الشَّيخ عبد العزيز الهاشمي ذلك البطل الجسيم الوسيم، ربيب النِّعمة والرَّفاهية، ذا الصَّوت الجهير والنَّظرات الحادَّة المشعَّة، كيف صار اليوم وقد أنهكه المرض وبرح به النَّقل بين السِّجن والمستشفى...».

حصل الشَّيخ عبد العزيز على حريته سنة (1944م)، لكنَّه مُنِعَ هو وإخوانُه من الرُّجوع إلى الوادي والمناطق المجاورة له[36]، وذكر الحسن فضلاء: أنَّهم تحرَّروا بعد عامين من السِّجن بلا محاكمة، ووضعوا تحت الإقامة الجبريَّة[37]،

ونَفَتْ السُّلطة الاستعماريَّة مترجَمَنا أكثرَ من مرَّةٍ، إلى أكثرَ من مكان، وأخيرًا: «نُفي إلى تونس، حيث تدهورت صحَّته.

وفاته

توفي بتونس - بعد أن طال به المرض - في أوَّل يونيو سنة 1965م»[38]، قبل أن يرى الجزائر وقد استعادت حرِّيَّتَها، فرحمه الله رحمة واسعة.



(35) «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (3/139) للحسن فضلاء.
(36) «شخصيات وقضايا من تاريخ الجزائر المعاصر/عبد العزيز بن الهاشمي والإصلاح» (ص60.45) للدُّكتور أحمد صاري.
(37) «من أعلام الإصلاح في الجزائر» (3/141) للحسن فضلاء.
(38) «المصدر السابق.» والَّذي ذكره الدُّكتور صاري: سنة (1962م)، والأوَّلُ هو الأقربُ، والله أعلمُ.

«أولاد المحدثين» لابن مردويه

لا

«أدباء المحدثين»

د/جمال عزون

رئيس قسم المخطوطات بمركز أبا بطين ـ الرياض

يعتبر أبو بكر أحمد بن موسى الأصبهانيّ الشَّهير بابن مَرْدُويَهْ (323هـ ـ 410هـ) أحد حفَّاظ الحديث المتقنين، حتَّى قال فيه حفيدُه أحمد بن محمَّد:

«رأيتُ من أحوال جدِّي من الدِّيانة في الرِّواية ما قضيتُ منه العجبَ من تثبُّته وإتقانه»[1].

وقد اشتغل بالتَّصنيف، ومن أشهر مؤلَّفاته: «التَّفسير الكبير» و«التَّاريخ» و«الأمالي» الَّتي أملاها في ثلاثمائة مجلس.

وممَّا لم يشتهر من تصانيفه كتابٌ لطيفٌ سمَّاه: «أولاد المحدِّثين»، يعتبر الآن في عداد ما فُقد من تراث ابن مردويه، ولم يبق منه سوى نقولٍ معدودة احتفظت لنا بها بعضُ كتب التَّراجم.

ويمكن من خلال ما تبقَّى من هذه النُّصوص تكوين ملامح يسيرة عن مضمون الكتاب ومنهج مؤلِّفه فيه.

وحاصلُ ذلك أنَّ ابن مردويه جمع فيه أسماء الرُّواة الَّذين اهتمُّوا برواية الحديث هم وآباؤهم، واهتمَّ في صياغة التَّرجمة بذكر اسم المترجم ونسبه وكنيته، ويسمِّي راويًا أو راويين من شيوخ المترجم وتلاميذه، ويكون والدُه في جملة من روى عنهم من شيوخه، ويذكر أحيانًا أخ المترجم فيقول: «وهو أخو فلانٍ»، وربَّما ذكر توثيقه، وصرَّح بتأليف له، ويختم ذلك بذكر وفاته، ويحدِّد أحيانًا عمره لَمَّا مات، ولا يُخْلي ابنُ مردُويه التَّرجمة برواية حديث بإسناده إليه.

وقد ذكر هذا الكتاب بعض الحفَّاظ والمحدِّثين كابن ماكولا وابن نقطة والصَّابوني وابن النَّجَّار ومغلطاي وابن حجر وابن ناصر الدِّين، وكلُّ نقولاتهم تثبت بما لا مجال للشَّكِّ فيه صحَّة نسبة كتاب «أولاد المحدِّثين» للحافظ ابن مردويه.

قال ابنُ ماكولا ـ في ترجمة محمَّد بن محمَّد بن ماسن ـ: «روى عنه أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه الحافظ الأصبهاني في

(1) «سير أعلام النّبلاء» (309/17).

كتاب أولاد المحدِّثين»[2].

وقال ابن نقطة: «حُبشيّ بن عمرو بن الرَّبيع بن طارق مصري يروي عن أبيه، حدَّث عنه محمَّد بن أحمد بن راشد، نقلتُه من خطِّ مؤتمن[3] من **كتاب «أولاد المحدِّثين»** لابن مردويه»[4].

وقال ابن النَّجَّار: «عليّ بن أحمد بن الرّوّاد حدَّث عن أبي العبَّاس إسحاق بن محمَّد بن مروان الغزَّال الكوفيّ، روى عنه أبو بكر أحمد بن موسى بن مردويه الأصبهانيّ في **كتاب أولاد المحدِّثين**»، أنبأنا[5] أبو القاسم الأزجين عن أبي محمَّد بن السَّمرقندي، أبنا القاضي أبو منصور بن سكرويه، أبنا أبو بكر بن مردويه، ثنا عليّ بن أحمد بن الرّدّاد البغدادي، ثنا إسحاق بن محمَّد بن مروان، ثنا أبي، ثنا إبراهيم بن بكر، عن مقاتل، عن نافع، عن ابن عمر أنَّ النَّبيَّ ﷺ لُحِدَ له ولأبي بكر وعمر رضي الله عنهما»[6].

وقال مغلطاي: «محمَّد بن عروة بن الزُّبير ابن العوَّام الأسديّ المدنيّ ذكره ابنُ مردويه في **أولاد المحدِّثين**»[7].

وقال ابن حجر -في ترجمة أبي بكر ابن النَّضر البغدادي-: «...وذكره ابن حبَّان في «الثِّقات»، وقال أبو بكر بن مردويه في **كتاب أولاد المحدِّثين**: بغداديٌّ ثقةٌ»[8].

إذا ثبت هذا فيجدر التَّنبيهُ إلى أنَّ اسم الكتاب تصحَّف على أحد شيوخنا الأفاضل إلى: «أدباء المحدِّثين» ففي مقدِّمة تحقيق كتاب «ثلاثة مجالس من أمالي ابن مردويه» أثناء سرد المحقِّق مؤلَّفات ابن مردويه ما يلي: «أدباء المحدِّثين: ذُكر اسم هذا الكتاب في هامش كتاب «الدُّعاء» للطّبراني، انظر رقم (2115) من كتاب «الدُّعاء» للطّبراني، ولم أجد من ذكر هذا الكتاب ونسبه إلى أبي بكر ابن مردويه»[9].

وفيه أمران:

الأوَّل: لستُ أشكُّ إطلاقًا في أنَّ «أدباء المحدّثين» تصحيف صوابه: «أولاد المحدّثين» بدليل التَّسمية المذكورة عند من سبق ذكرُهم من أعلام، ولقد وددتُ أن أنظر في النُّسخة الخطيَّة من كتاب «الدُّعاء» للطَّبراني للتَّحقُّق من سلامة قراءة المحقِّق الفاضل للكلمة، غير أنَّ ذلك لم يتيسَّر لي الآن[10].

الثَّاني: أنَّ الكتاب ذكره ونسبه إلى ابن مردويه ابنُ ماكولا وابن النَّجَّار وابن نقطة ومغلطاي وغيرهم كما تقدَّم.

---

(2) «الإكمال» (153/7).

(3) وهذا يعني أنَّ ابن نقطة ينقل من كتاب «أولاد المحدِّثين» لابن مردويه بخطِّ الحافظ مؤتمن بن أحمد السَّاجي المتوفَّى سنة (507هـ).

(4) تكملة الإكمال (229/2) لابن نقطة، وعنه ابن ناصر الدِّين في «توضيح المشتبه» (69/3)، وانظر نقولا أخرى عن الكتاب في تكملة الإكمال أيضًا (215/1، 338، 57/2، 662، 22/3، 117، 240، 607).

(5) يورد الآن ابنُ النَّجَّار سندَه الَّذي يروي به كتاب أولاد المحدِّثين لابن مردويه، وهذا النَّصُّ نموذج لطريقة ابن مردويه في إيراد رواية عن المترجم له في كتابه هذا.

(6) «ذيل تاريخ» بغداد (182/3).

(7) «إكمال تهذيب الكمال» (276/10)، وثمَّة نصوص كثيرة نقلها مغلطاي يدور معظمها حول وفيات المترجمين، انظر (403/4، 277/6، 322، 89/7، 138، 230، 288، 262/8، 273. 274، 316، 317، 22/9، 170. 171، 363، 380، 383، 37/10، 84، 135، 276، 289، 315، 374، 378، 385، 108/11، 111/12، 323).

(8) «تهذيب التَّهذيب» (43/12)، وانظر نقولاً أخرى عن الكتاب في (72/5، 399/6، 138/7، 498/9).

(9) «ثلاثة مجالس من أمالي ابن مردويه». مقدِّمة التَّحقيق (ص 30).

(10) اعتمد محقِّق «الدُّعاء» على نسخة تركيَّة لها صورة في جامعة أمِّ القرى بمكَّة المكرَّمة، وهي نسخة نفيسة فيها هوامش جيِّدة اعتمد أصحابها على مصادر نادرة ومنها كتاب ابن مردويه: «أولاد المحدِّثين»، والهامش الَّذي فيه ذكر الكتاب هو في الورقة (230 ب) كما في مقدِّمة التَّحقيق (67/1) وسمَّاه: «أدب المحدِّثين» بالإفراد، وفي هامش (1744/3)، رقم (2115) سمَّاه «أدباء المحدِّثين» بالجمع، والصَّواب: «أولاد المحدِّثين» كما تقدَّم.

اللغة والأدب

مشارق الأنوار على مَثَل الدَّفلى والنَّوَّار

الجزء الأول: كتاب المباني

محمد بوسلامة
الجزائر

لقد كان من دأب البُلغاء أن يُرسلوا في النَّاس كلماتٍ مختصرة تحوي في معانيها ما يغني عن طويل القصص ومسترسل الخُطب ومَديد الكلام، فهم يصبُّون جمامًا من المعاني في قوالب قليلة المباني، تجمع من الحِكم والعِبر ما تحمله الأسفار، فإذا استفتح مغاليقها مستفتح؛ انهمر عليه من تلك الجمام سيلٌ غزيرٌ.

تلك هي الأمثال السَّائرة الَّتي يحفظها كلُّ إنسان، وتجري على كلِّ لسان، فهي الموعظة لمن أراد العظة، والحجَّة لمن طلب البرهان، والسُّلوان لذي المحنة، والذِّكرى لذي الغفلة، وهي الأدب والطّرافة والنُّبل والظّرافة.

ولقد كان لنا من التَّالد الموروث عن أسلافنا من هذا الكلم الرَّفيع شيءٌ كثيرٌ لا تحيط به الكتَّاب، ولا يحويه كتاب، ولقد التقط بعض أدباء بلدنا من تلك الدُّرر فرائد أنقذوها من متالف الزَّمان، وكان سعيهم مشكورًا، غير أنَّ ما جمعوه هو قطرة من أمطار ودينار من قنطار.

وإنَّ ممَّا أدرك النَّاس من أمثال السَّالفين من أهل بلدنا قول الحكيم: «لا يعجبك نوَّار الدَّفلى في الْوَاد عَامْلَه ظْلاَيِلْ، ومَا يَعَجبك زِينْ الطَّفْلَهْ حتَّى تشُوف الفْعَايِلْ».

وهي من رُباعيَّات عبد الرَّحمن المجدوب رحمه الله، وقد نازعنا فيها أهل تونس المحروسة، وزعموا أنَّها تونسيَّة! والمقطوع به أنَّ الحكمة بهذه الصِّيغة من كلام المجدوب رحمه الله.

وهي ثابتة في ديوانه المنقول إلينا منه نقلاً متواترًا، وصورتها في الدِّيوان على ما تقتضيه الصّنعة على هذا الضَّرب.

لا يعجبك نوَّار الدَّفله
في الواد عاملة ظلايل
ولا يعجبك زين الطَّفله
حتَّى تشوف الفعايل

وقد قطع بنسبة المثل إلى المجدوب العلاَّمة المؤرِّخ عبد القادر نور الدِّين الجزائري، وهو شيخُ شيخِنا الفقيه محمَّد شارف، مفتي الدِّيار العاصميَّة زمن إمامته بالجامع الأعظم، وهو من المحقِّقين.

وكلام المجدوب في المرأة كثيرٌ، ولعلِّي أذكر منه شيئًا آخر في هذا الكتاب يناسب المقام.

ولقد سمعنا هذا المثل صغارًا، وفهمناه كبارًا، وقد بدا لي أن أشرحه على منوال شرحنا لقول الحكيم: «اللّسان الحَلُو يَرْضَع اللبَّة».

وهي طريقة استحسنها أهل العلم والأدب، وأحسب أنِّي لم أسبق إليها.

وكان ممَّا اخترته في هذه السَّبيل أن أقدِّم الكلام على المباني، ثمَّ أرجع إلى المعاني مراعيًا لألفاظ الرِّوايات الشَّعبيَّة، وما ينبني عليها من المعاني والتَّخريجات النَّحويَّة.

واعلم أنَّ اعتناءنا باللُّغة الدَّارجة ليس غاية لمقاصدنا، وإنَّما هو موصل للمقاصد، وإنَّ في ذلك لبيانًا لصلةِ كلامنا بكلام العرب في الألفاظ والأساليب، فإذا سعينا بعد هذا في تهذيب الدَّارجة كنَّا على قُرب من العربيَّة الصَّحيحة، ولا شكَّ أنَّ تهذيب اللِّسان من مظاهر الرُّقيِّ الحضاري.

وأمَّا اشتغالنا بالكلام البليغ من المنظوم والمنثور الجاري على الدَّارجة الجزائريَّة، ففيه تحصيلٌ لأدبٍ رفيع، وإنَّ في تضييعه لضياعًا للأدب الجزائريِّ الممتزج بتاريخ وأنساب أهل هذا الوطن، ولقد وضع كبار علماء الجزائر شروحًا على قصائد من الشِّعر الملحون، كما فعل «أبو راس المعسكري» بقصيدة الشَّاعر الفحل «سعيد المنداسي الجزائري» رَحِمَهُ الله المشهورة بـ«العقيقة» فأتى بالعجب، وفي مقدِّمة الشَّرح يقول في شأن القصيدة: «وهي وإن كانت من الشِّعر الملحون؛ فقد احتوت على غرائب من اللُّغة والبلاغة واللُّحون حتَّى انقادت تمائم القصائد إلى سحرها وصارت واسطة عقد نحرها» اهـ.

وقد شرحها ـ أيضًا ـ غير أبي راس من أعلامنا.

إنَّ الكلام على صلة الدَّارجة بالفُصحى لقمين بأن يفرد بتصنيفٍ مشتملٍ على أبواب، ويبوَّب فيه لغريبِ اللُّغة في اللِّسان الدَّارجي، وأساليب العرب في كلام النَّاس، وللإمام «البشير الإبراهيمي» تأليف في بعض ما ذكرناه ولم أرَه، والظَّنُّ أنَّه كتابٌ جليل، فإنَّ هذا الموضوع لا تخدي في فلواته إلاَّ أمثال المراقيل الإبراهيميَّة.

وللأستاذ الكبير أبي العبَّاس أحمد بن الهاشمي رَحِمَهُ الله عناية عظيمة باللُّغة الدَّارجة، ومن ذلك مقاله النَّفيس الَّذي نشر في جريدة «البصائر» منذ سبعين عامًا بعنوان: «بعد غربة اللُّغة العربيَّة أصبحنا نخشى على اللُّغة الدَّارجة»، وفيه يقول ـ وبقوله أقول ـ: «كأنِّي بالقارئ وقد أخذ منه العجب مأخذه عندما يرى جريدةً هي لسان حال علماء الجزائر تنتصر للغة عاميَّة وتنشر للدِّعاية في التَّرغيب فيها والحثِّ على صرف طرفٍ من الاهتمام في تحصيلها! على رسلك أيُّها الأخ.. إلى أن قال: لكن من نظر في المسألة نظرةَ بحثٍ وتحقيق؛ انكشف له في الحال ما بين الفُصحى والعاميَّة من كمال النِّسبة وعموم الاتِّصال، ولا إخالني مجازفًا إن قلت: إنَّ اللُّغة العاميَّة عربيَّة الأصل في نسبة ربَّما لا تقلُّ عن سبعين في المائة، وفيه يقول: ومن جال في الأقطار الإسلاميَّة وتتبَّع لهجات الحواضر والبوادي؛ بهره ما يتخلَّل تلك اللَّهجات من المُفردات والأصول اللُّغويَّة؛ لذلك كان دأبي تقييد كلِّ ما يلتقطه سمعي من مستملح العبارات ومحاسن الأمثال» انتهى محلُّ الغرض منه، وهو مقال طويل.

ولقد عظَّمتُ أبا العبَّاس مذ أن قرأتُ مقالتَه وعلمت أنَّه من نبلاء الأمَّة، ولا أدري ما فعل الزَّمان بما كنتَ تقيِّده يا أبا العبَّاس!؟ ولقد طالت ذيول المقدِّمة، وهذا أوان الشُّروع في المقصود.

اعلم ـ علَّمك الله ـ أنَّ الكلام على المثل يجري على وجهين أحدهما يرجع إلى المبنى، والآخر إلى المعنى، وإنِّي كما عرَّفتك بطريقتي آخذ في الكلام على المباني وما يتعلَّق بضبط الألفاظ على مقاييس الدَّارجة، والمثل كما ترى عربي في اللَّفظ والأسلوب، وقد صدَّره الحكيم بحرف «لا» من قوله «لا يعجبك»، وهي تأتي في كلام العرب لمعانٍ منها: النَّهي نحو: لا تفعل، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾.

ومنها النَّفي؛ نحو: لا أفعل، ومنه قوله تعالى: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾.

ومن مجيئها للنَّفي في كلامنا الدَّارجي قول المثل الجزائري: «لا دَار! لاَ دُوَّار!».

وتأتي للدُّعاء نحو ربِّ لا تعذِّبني، ومنه قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا﴾.

وعلى هذه المعاني الثَّلاثة تجري في كلامنا كثيرًا، وهي في المثل الشَّعبي للنَّهي، وفي رواية شعبيَّة «ما يعجبك»، وهي على هذه الرِّواية ما النَّافية.

وقد استعملت العرب «ما» لنفي الأسماء والأفعال، غير أنَّ دخولها على الأفعال أكثر، وكذلك الشَّأن عندنا، وتأتي اسمًا موصولاً كما في قوله تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾، وكذلك نقول على قلَّة، ومن ذلك قولنا: «خُود مَا اعْطَاك الله»، أي الَّذي أعطاك الله تُقال له في سياق الحثِّ على القناعة والرِّضى بالمقدور.

وقد اجتمعت «ما» النَّافية والموصولة في قول الفقيه الأديب «بكر بن حمَّاد الزَّناتي الجزائري» من قصيدة يعتذر فيها:

أبا حاتم ما كان ما كان بِغْضَةً

ولكن أتت بعد الأمور أمور

وممَّا جاء باجتماعهما قول العامَّة في تقليل الشَّيء «ماكان ماكان».

وتأتي «ما» في كلام العرب موصولاً حرفيًّا، ومنه قوله تعالى حكاية: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي﴾، أي بغفران ربِّي، ومجيئها على هذا الوجه في الدَّارجة مسموع في بعض التَّراكيب، ولا يحضرني من ذلك شيء إلاَّ نحو قولهم: «بلا ما يفهم» أي: بلا فهم، و«بلا ما يقول» أي بلا قول، وموصوليَّتها الحرفيَّة على هذا التَّركيب مطَّردة في كلِّ الأفعال عندنا، وقد كنتُ أحسبُ أنَّ «ما» في نحو هذا التَّركيب زائدةٌ على نحو ما تفعل العرب، ثمَّ بدا لي أنَّها موصول حرفيٌّ كما رأيت، ولا يبعد أن يظفر لزيادتها بمثال من الدَّارجة، ولا يذهب بك الوهم إلى أنَّ معنى زيادتها استواء ذكرها وحذفها، فالعرب لا تزيد لغير معنى، والزِّيادة هنا للتَّقوية.

وأمَّا وصف النُّحاة للحرف بالزِّيادة؛ فمرادهم أنَّ حذفه لا يخلُّ بالغرض، لا أنَّه ليس في ذكره معنى، وعليه فقد كرِه العلماء التَّعبير بالزِّيادة في إعراب القرآن الكريم لما في ذلك من الإيهام، فيعبِّرون بالصِّلة، ولا شكَّ أنَّ هذا أمر اصطلاحي والأدب مطلوب.

أمَّا قوله: «يعجبك» فهو مضارع «أعجب»، وهو عندنا بمعناه عند العرب، ونحن في باب الأفعال نجري على سَنَن العرب، فنأتي بالماضي والمضارع مُصَدَّرًا بحروف المضارعة والأمر والمصدر، ونأتي بالمفعل في المصادر والظُّروف على ما ذكره أهل التَّصريف.

وقد يختلف بعض في القلّة والكثرة باختلاف نواحي القُطر الجزائري، ولبسط هذا موضع آخر.

وفي رواية شعبيَّة «لا يْغرَّك» بدلاً من «لا يَعَجبك»، وكلاهما يؤدِّي الغرض في مقام التَّحذير والتَّنبيه، ويشهد للرِّواية الأولى قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾، ويشهد للثَّانية قوله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾، وعلى كلتا الرِّوايتين فالمثل جارٍ على الأساليب الفصيحة.

ثمَّ إنَّه يحتمل أن يكون الحكيم نطق بكلِّ الرِّوايات المذكورة في الحرفين والفعلين في أوقاتٍ مختلفة، ثمَّ نقل عنه كلُّ رَاوٍ ما سمع.

ويحتمل أنَّه نطق بلفظ واحد، ثمَّ نقله عنه بعض الرُّواة بالمعنى، وبهذا وجِّهت أحاديث كثيرة وردت على هذا النَّحو، إذ كان كثير من الروَّاة يروون الحديث بالمعنى، ولهذا أعرض كثير من النُّحاة عن الاستدلال بالحديث في مسائل النَّحو، وذلك لأنَّه لا يجزم فيها باللَّفظ النَّبوي، وإن جزم بصحَّة الحديث، وقد انتصر لهذا القول جماعة من الأكابر وعابوا على الإمام ابن مالك إثباته للوجوه النَّحوية بالحديث، ولقد فرحت بهذا القول دهرًا وكنت أحسبه التَّحقيق، ثمَّ بدا لي أنَّه خلاف التَّحقيق وأنَّ الحقَّ مع ابن مالك، وقد انتصر له جماعة من المحقِّقين، ولقد أدركت نحاة شنقيط وهم أئمَّة هذا الشَّأن في هذا العصر يثبتون الوجوه ويرجِّحون الأقاويل النَّحوية بالحديث، وهذا مطلب قمين بأن يفرد بكتاب.

أمَّا «نُوَّار» فهو على زنة «رمَّان» وهو النَّور أي الزَّهر، واحده نوَّارة، واستعمال «نوَّار» في الجمع، و«نوَّارة» في الإفراد عربيٌّ صحيح جرت عليه الدَّارجة الجزائريَّة، وهو من كلام العرب الهلاليِّين، وغيرهم ممَّن استوطنوا المغرب الأوسط، ونُقل إلينا كلامهم بالنَّقل المتواتر يرثه جيل عن جيل.

وإنَّ هذه اللُّغة في الإفراد والجمع قد أهملها كثير من الكتَّاب والبلغاء من الجزائريِّين وغيرهم مع فصاحتها، وموافقتها لأوزان العرب وتصاريفهم؛ إذ قد استعملت العرب هذين الوزنين فيما تخرجه الأرض؛ فقالوا: تفَّاحة وتفَّاح، ورمَّانة ورمَّان، فما المانع

أن نقول: نوَّارة ونوَّار، وبهذا فقد صار المثل المذكور من شواهد هذه اللُّغة النَّادرة الاستعمال يستشهد به الأديب الألمعي؛ فيقوم في عصرنا مقام ابن شُمَيْلٍ والأصمعي:

فهذه حكمتُنا المأثورهْ

قد أعربَتْ عن لغة مهجورهْ

قد ذَكَرتْها كتبٌ مشهورهْ

فمكثت مغمورة مستورهْ

ثمَّ غَدَت بين الورى منصورهْ

غالبةً «ودارت النَّاعورهْ»[1]

وقد استعملها الفصحاء من أهل بلدنا في الزمن القديم، ومن ذلك قول ابن مرزوق الجد التلمساني:

انظر النوار في أغصانه

يحكي النجوم إذ تبدت في الحلك

ثمَّ إنَّ بعض أهل القطر الجزائريّ قد نقل لفظة «نوَّار» عن الجنسيَّة إلى العلميَّة، فهو عندهم عَلَمٌ لرجل، وهؤلاء يجعلون «نوَّارة» أيضًا علمًا لأنثى، وهذا ما يسمِّيه النُّحاة العلم المنقول، وهو ما استعمل في غير العلميَّة، ثمَّ نقل إليها ويقابله ما لم يستعمل إلاَّ عَلَمًا ويسمُّونه العلم المرتجل، وكلاهما موجودٌ في الدَّارجة وإلى النَّوعين، أشار ابن مالك بقوله:

ومنه منقول كفضل وأسد

وذو ارتجال كسعاد وأُدَدْ

وغالب الأعلام منقول عند العرب، وكذلك الشَّأن عندنا، ولفظة «نوَّار» في المثل مركَّبة مع لفظ «الدَّفلى» تركيبًا إضافيًّا على معنى اللاَّم، وهذا أحد معاني الإضافة، ومثاله «كتاب زيد»، وتأتي على معنى «من» كخاتم ذهب، أي من ذهب، وزاد بعض النُّحاة معنى في نحو «قيام اللَّيل» أي في اللَّيل، وكلُّ هذه المعاني فاشية في كلامنا الدَّارجي.

أمَّا «الدَّفلى» فهي كلمة عربيَّة تُطلق على نبات معروف، ويقال: الدَّفل ـ أيضًا ـ بغير ألف، وقد ذكرها أهل اللُّغة وجرت في كلام الشُّعراء، ومنه قول الشَّاعر:

هيهات جئتَ إلى الدَّفلى تحرِّكها

مستطعمًا عنبًا حركتَ فالتقط

ويُقال لها في اللِّسان الأمازيغي «إليلي» وهو الشَّائع في بلاد زواوة، و«ثاليلي»، وبعضهم يقول: «إنيني» و«إيريري»، وبقيَّة الكلام على الدَّفلى في «كتاب المعاني»، والكاف المذكورة في المثل هي كاف الخطاب، والخطاب هنا للمذكَّر والتَّذكير ملازم لهذا التَّركيب، ولو كان المخاطب به أنثى؛ لأنَّ الأمثال تُحكى ألفاظها من غير تصرف كما لو كان أصل وضع المثل لخطاب أنثى، فإنَّه يُخاطب به الذَّكر كذلك بضمير المؤنَّث، كما في قول العرب: «الصَّيفَ ضيَّعتِ اللَّبن»، فإنَّه قيل أوَّل الشَّأن لامرأة في قصَّة معروفة عند العرب، فهو يُقال بتاء التَّأنيث لكلٍّ من أضاع شيئًا، ثمَّ طلبه بعد فواته، ولو كان ذكرًا، وتأويله أنَّ هذا مقامٌ يقال فيه: «الصَّيفَ ضيَّعتِ اللَّبن»، وقس عليه الباب كلَّه.

ولكاف الخطاب مبحثٌ بلاغيٌّ موضعه «كتاب المعاني».

وأمَّا قوله: «في الواد»؛ فجارٌّ ومجرور متعلِّقٌ بقوله: «عامله ظلايل»، و«في» هنا للظَّرفيَّة، وهي أشهر معانيها عند العرب، وكذلك الشَّأن عندنا وتأتي كثيرًا في اللَّغة بمعنى «على»، ومنه قول عنترة في معلَّقته:

بطلٌ كأنَّ ثيابه في سَرْحَةٍ

يُحذي نِعال السِّبت ليس بتوأم

أي على سرحة وهذا شائعٌ في الدَّارجة، ومنه قولهم: «فلان في الجبل وفي السَّطح»، أي على الجبل والسَّطح، وتأتي لبيان السَّبب ومنه قول النَّبيِّ ﷺ: «**دَخَلَت امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ**» أي بسبب هرَّة، ومن أمثلتها في الدَّارجة قول النَّاس: «فلان ربح فيها جائزة»، أي ربح بسببها، و«فلان ادا فيها طريحة» أي بسببها، والضَّمير للوقعة أو الفعلة.

وجملة «في الواد عامله ظلايل» جملة حاليَّة من «الدَّفلى»، فهي في موضع نصب على الحال، وصاحب الحال هنا مضافٌ إليه، وقد عُلم في النَّحو امتناع مجيء الحال من المضاف إليه

(1) هذه كلمة تستعمل في اللغة الدارجة بمعنى تحول الغالب إلى مغلوب، والمغلوب إلى غالب.

إلاَّ في مواضع.

فإذا عرفت هذا؛ فاعلم أنَّ الحال هنا من الصُّور الجائزة، وهي هنا كون المضاف جزءًا من المضاف إليه، فإنَّ «النوَّار» بعض الشَّجر، قال في «الخلاصة»:

ولا تجز حالاً من المضاف له

إلاَّ إذا اقتضى المضاف عمله

أو كان جزءَ مالَهُ أُضيفا

أو مثلَ جزئه فلا تَحِيفا

ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا﴾ [الحجر: 47]، فإنَّ «إخوانًا» حال من ضمير «هم»، وهو مضاف إلى «صدور»، والمضاف هنا بعضٌ من المضاف إليه كما هو واضح، وما ذكرناه إنَّما يتخرَّج على رواية «عامله ظلايل» بالتَّاء وهي الأشهر في الاستعمال.

وأمَّا على رواية «عامل ظلايل» بغير تاء، وهي رواية صحيحة، فلا يرد ما ذكرناه؛ لأنَّ «عامل ظلايل» يصير حينئذ حالاً من «النوَّار» لا من «الدَّفلى» و«نوَّار» مضاف، وبحثنا كان في المضاف إليه على أنَّه يجوز أن تُعربَ الجملة نعتًا «للدَّفلى» لا حالاً فتكون حينئذ في محلٍّ خفضٍ لكون متبوعها مجرورًا.

فإن قلت: فكيف يصحُّ هذا الوجه وقد ذكروا أنَّ الجمل بعد المعارف أحوال وبعد النَّكرات أوصاف، ولفظ «الدَّفلى» هنا معرَّفة؟

فجوابه هنا أن يقال: هذه قاعدة صحيحة غير أنَّ هذا لازم فيما تمحَّض للتَّعريف أو التَّنكير، فإذا أُشيبت المعرفة بتنكيرٍ والنَّكرة بتعريفٍ احتمل الكلام حينئذ الوجهين، ولذلك جوَّز المعرِّبون الوجهين في قول الشَّاعر:

ولقد أمُرُّ على اللَّئيم يسبُّني

فمضيتُ ثمَّت قلت: لا يعنيني

فجوَّزوا في جملة «يسبُّني» الحاليَّة والوصفيَّة؛ فإعرابها حالاً؛ نظرًا للفظ «اللَّئيم»؛ فإنَّه معرفةٌ لاقترانه بأل التَّعريف، وإعرابها نعتًا باعتبار المعنى فإنَّه لا يختصُّ بلئيم معيَّن؛ لأنَّ «أل» فيه للجنس، فشابه في هذا المعنى النَّكرات، فصحَّ أن تكون الجملة بعده نعتًا، وإلى ما سبق بيانه أشار العلاَّمة «المجرادي» في منظومته المشهورة بـ«المجراديَّة» بقوله:

وإن وقعت من بعد محضٍ معرفٍ

فإعرابها حال لما قبل قد خلا

وإن وقعت من بعد محض منكرٍ

فإعرابها نعتٌ لما قبل قد تلا

ويحتمل الوجهين بعد منكرٍ

ومعرفةٍ ليسا بمحضين فاقبلا

فإذا علمت هذا؛ لاح لك عدم تمحُّض لفظ «الدَّفلى» في المثل للتَّعريف، بل لفظه معرفةٌ ومعناه نكرةٌ لعدم دلالته على معيَّن، وذلك لأنَّ «أل» فيه للجنس.

وأمَّا الواو من قوله: «ولا يعجبك زين الطَّفله»؛ فهي واو العطف الدَّالة على الاشتراك في الحكم، وهذا أشهر معانيها، ونحن نعطف بها على مقتضى لغة العرب، فنُشرك بها في الحكم من غير قصد التَّرتيب ولا مُصاحبةٍ، وقد نُريد ذلك غير أنَّه ليس بلازم ونحن في هذا على مذهب المحقِّقين، وقد أشار إليه ابن مالك في «الخلاصة» بقوله:

واعطف بواوٍ سابقًا أو لاحقًا

في الحكم أو مصاحبًا موافقًا

وبهذا اعترض فقهاؤنا المالكيَّة على من أوجب التَّرتيب في بعض الأحكام مستندًا إلى هذه الواو، كما فعل من أوجب التَّرتيب في الوضوء مستدلاً بآية الوضوء، وذلك لأنَّ الواو لمجرَّد الاشتراك ولمُخالفنا أجوبة على طريقة المناظرة، مطلبها في كتب الخلاف.

واعلم أنَّ الواو كثيرًا ما يستعملها أهل قطرنا في المصاحبة، فتكون حينئذ واو المعيَّة لا العاطفة، غير أنَّ ذلك لا يَظهر له أثر في اللَّفظ لفساد الإعراب في اللُّغة الدَّارجة، فلا يظهر النَّصب كما في نَحو قول العرب: «جاءَ الأميرُ والجيشَ» بنصب «الجيش»، فيُعتمد حينئذ على ضميمةٍ خارجيَّة، ومع هذا فقد تخفى القرينة، ولهذا فإنَّهم إذا أرادوا التَّنصيص على المعيَّة في الدَّارجة جاؤوا بلفظ «مع».

وممَّا تجيء له الواو في كلامنا: القسم، وبعض أهل الشَّرق عندنا يأتون بباء القسم في بعض أقسامهم، وكلُّ هذه المعاني الَّتي ذكرتها لك في هذا الحرف جارية على فصيح اللُّغة.

وقوله: «زين الطَّفله» أي جمالها، و«الطِّفله» مؤنَّث طفل، وهي بكسر الطَّاء، ونُطقها على قانون الدَّارجة بضمٍّ مشوبٍ بفتح وهو مضطردٌ في نظائرها، وأهل الشَّرق الجزائري يضمُّون الطَّاء من لفظ «الطُّفله» ضمًّا خالصًا، والظَّاهر أنَّه لحنٌ ويجوز أن يكون شيئًا مسموعًا عن العرب القدماء.

وفي كلِّ حالٍ فهو لحن أو لغة رديئة، وكثيرًا ما سمعت من أهل بلدنا ألفاظًا كنت أظنُّها من قبيل ما تلحَن فيه العامَّة، فإذا فتَّشت عنها وجدتها لغةً صحيحة.

ومن ذلك أنَّهم يقولون: «الفُقْرُ» بالضَّمِّ وكنتُ أحسبه من لحن العامَّة، فإذا هو مسموعٌ عن العرب، ولا شكَّ أنَّ الفتح أفصح فلعلَّ ضمُّ لفظ «الطِّفله» كهذا الضمِّ في السَّماع غير أنَّه أهملته الكتب».

وقوله: «ظلايل» جمع ظليلة ـ بمعنى الرَّوضة الكثيرة الشَّجر ـ، وهو جمع جارٍ على أوزان العرب كما ترى، فهم يقولون: ظليلة وظلائل، كقولهم: صحيفة وصحائف، وهو من أوزانهم القياسيَّة، ويجوز أن يكون جمع ظلٍّ على الدَّارجة، وكلاهما يتمُّ به المقصود على ما يأتي بيانه في «كتاب المعاني».

وقوله: «الفعايل» هو جمع فعل على تعبير الدَّارجة، وإنَّ ما سهَّل مجيئه على هذا الوزن اقترانه بلفظة «ظلائل»، وقد يجوز في الشَّيء مقترنًا بغيره على وجه المشاكلة ما لا يجوز فيه منفردًا، ويكون ذلك من قبيل ضرورة السَّجع؛ فإنَّ لأوزانه ضرورة كضرورة الشِّعر، ولا شكَّ أنَّ هذا التَّناسب أكسب الكلام حسنًا من جهة اللَّفظ، وهذا ما يسمِّيه أهل البيان: بـ«السَّجع»، وهو في النَّثر بمنزلة القوافي في الشِّعر، وإلى هذا المعنى أشار «عبد الرَّحمن الأخضري الجزائري» بقوله:

والسَّجع في فواصلٍ في النَّثرِ
مشبهةٍ قافيةً في الشِّعرِ

والسَّجع في البلاغة من محسِّنات الكلام، وأصل الحسن فيه أن يكون اللَّفظ تابعًا للمعنى، فإن انعكست القضيَّة ظهر التَّكلُّف والتَّنافر، وما أحسنه في المثل الشَّعبي: «تبَّع رخصو ترمي نصُّو» وليس ذلك بشرط، وإنَّما هو على ما يسمح به الحال، وهل ضرَّ الحكيم ترك السَّجع حين قال: «لَخْبَرْ يْجِيبُوه التَّوَالَى»، ولو رام متفاصحٌ تسجيعه لبرَّده ولذهب بطلاوته، فليس السَّجع محمودًا في كلِّ موضع، وإنَّما يُحمد منه ما جاء طوعًا، وكأنَّه لم يوضع إلَّا لذلك الموضع، ولقد كلِف كثير من الخطباء والكتَّاب بالسَّجع؛ فحشروا الألفاظ في محشر الأسجاع ولسان حالهم يقول:

نحن في الأسجاع ندعو الجفلى
لا ترى السَّاجع فينا ينتقر[2]

فساقوا نوافرها شرَّ مساق، فتأتي مكبكبة ملتوية الأعناق، قد أنهكتها المجاشم والقُحم كما أنهكت الخطيبَ المُعانى حين شغلته الألفاظ عن المعاني، ثمَّ بعد ذلك يصكُّ بمنادل سجعه المسامع ويحسب أنَّه قد جاء بضرب من البديع، وإنَّ هذا ليذكِّرني خطبة عيد شهدتها قديمًا التزم فيها خطيبها ما لا يلزم، وتكلَّف ما لم يُكلَّف، وجاء بسجع على حرف الرَّاء إلى خاتمة الخطبة! وقد ذهب به التَّكلُّف كلَّ مذهب؛ فاجتمعت الألفاظ على وحشة بينها، كلُّ لفظ ينطح جاره ولا يطيق جواره، فكانت عناية خطيبنا بحرف الرَّاء أكثر من عنايته بوعظ النَّاس في ذلك اليوم المشهود، وقد طال ما اسْتَطْرَدْنا به، وهذا عود إلى ما كنَّا فيه، والعود أحمد.

ومنه أنَّ حرف الظَّاء من قوله: «ظلايل» قد اختلفت فيه ألسنة أهل البلاد، فمنهم من ينطقها ظاءً على الوجه الصَّحيح وعليه جمهورهم، غير أنَّ من ينطق الظَّاء صحيحة عندنا لا يميِّز بينها وبين الضَّاد، فهو ينطق الضَّاد ظاءً، فيقول في نحو رمضان والضَّوء: «رمظان» و«الظَّوء» بالظَّاء، وذلك لعسر حرف الضَّاد عليهم، وهم يقرؤن القرآن الكريم على هذا النَّحو فيلحنون، واللَّحن في الفاتحة أشدُّ؛ لتعلُّقه بركن من أركان الصَّلاة، وهم

(2) أصل هذا البيت في قول صاحبه:
نحن في المشتاة ندعوا الجفلى لا ترى الآدب فينا ينتقر
غير أنِّي حوَّلته إلى ما يناسب المقام.

يقولون: «ولا الظَّالِّين» بالظَّاء من قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة : 7]، وبعض فقهائنا يبطل الصَّلاة بذلك خلف من لا يميز بينهما، وهو أحد الأقوال في الصلاة خلف اللأحن، وذيول المسألة في كتب الفروع وغيرها.

ولا شكَّ أنَّ التَّمييز بينهما واجب على قدر الإمكان، إذ لا يتأتَّى ذلك لكلِّ إنسان، ولا يمكن في هذا العصر أن ينطق بحرف الضَّاد على الوجه الصَّحيح إلاَّ بمشافهة شيوخ الإقراء.

ولقد مكثت من عمري سنين أزعم أنَّني أنطق الضَّاد على وجهها، وتشدَّقت بذلك دهرًا حتَّى لقيت مشيخة الإقراء بدمشق الفيحاء؛ فزالت حينئذ غمامة الإلباس، وتبيَّن لي أنَّ ذهبي نحاس، وانجلت الرَّغوة عن اللَّبن الصَّريح، وأخذت الضَّاد على الوجه الصَّحيح في جملة علم الأداء.

وبعض أهل الوطن يقول في: «ضلايل» بالضَّادِّ، وهؤلاء ينطقون الضَّادَّ على الوجه الصَّحيح أو قريبًا من ذلك، غير أنَّ هؤلاء لا يكادون ينطقون بالظَّاء، فهم يقولون في نحو: «الظُّهر» و«الظّفر» و«الظّلّ»: «الضُّهر» و«الضّفر» و«الضّلّ» بالضَّاد، وهكذا في الكلام كلِّه؛ وذلك لعسر حرف الظَّاء عليهم، وعليه لسان أهل مدينة الجزائر المحروسة وما قاربها.

وبعض أهل البلاد ينطق الضَّادَّ دالاً، وبعضهم يميل بها إلى الطَّاء، وكلُّ هذا من فساد اللِّسان، ولقد بَرِمَ بهذا بعض شيوخ شيوخنا فقال:

الضَّادُّ حرف عسير يشبه الظَّاءَ
لا الدَّال يشبه في نطق ولا الطَّاءَ
لحن فشا منذ زمان قد اتبعت
أبناؤها فيه أجدادًا وآباء
من غير مستند أصلا وغايتهم
إلفُ العوائد فيه خَبْطَ عشواء
والحقُّ أبلج لا يخفى على فطن
إن استضاء بما في الكتب قد جاء
هذا هو الحقُّ نصًّا لا مردَّ له
من شاء بالحقِّ فليؤمن ومن شاء

لكنَّ في قوله يشبه الظَّاء نظرًا؛ فهو يوهم أنَّه يشبهه في اللَّفظ والسَّمع، وهذا غير صحيح، وإن صرَّح به بعض الأفاضل، ولعلَّ صاحب الأبيات يقصد أنَّه يشبه الظَّاء في أكثر الصِّفات.

ومن أهل البلاد من ينطق الضَّاد زايًا خالصًا، وقد سمعت هذه الظَّاء في إقليم توات في بعض قصورها، وكان من خبر ذلك أنِّي كنت في بعض مجالس المشيخة هنالك، وكان حديثنا في التَّعالم وأهله، فقال رجل فقيه: «حبُّ الزُّهور يقصم الزُّهور»، وهي العبارة المشهورة عند النَّاس، فيقولون: «حبُّ الظُّهور يقصم الظُّهور».

وكان ذلك أوَّل العهد بهذه الظَّاء التّواتيَّة، ثمَّ سمعتها كثيرًا في نطق بعض العشائر، وأكثر أهل توات لا تجري هذه الزَّاي في ألسنتهم، وكنت أحسب أنَّ نطق الظَّاء زايًا ممَّا انفرد به أهل مصر ومن والاهم، وعلى هذه الوجوه يجري النُّطق بالظَّاء في الحكمة الشَّعبيَّة على اختلاف ألسنة أهل بلادنا.

وقوله: «حتَّى تشوف» جاء لبيان الغاية.

واعلم أنَّ «حتَّى» تأتي للغاية، كما هنا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ﴾ الآية [البقرة : 187].

وتأتي للتَّعليل نحو: «أُصدق حتَّى تُكتب مع الصَّادقين»، وعلى المعنيَيْن تجري في كلامنا العامِّي، ومن العرب من يُبدل الحاء من هذا الحرف عيْنًا فيقول: «عتَّى».

ولقد سمعت رجلاً من أهل البوادي عندنا يميل بها إلى هذا النُّطق، ولا أدري أهي لغة قَوْمِه أو هو شيء صنعته البحَّة، ولم يطل مقامي بين القوم لاستقراء هذا الباب؛ فإنَّ اللُّغات لا تثبت بمثل هذا كما هو معلوم.

وقوله: «تشوف» فهو فعل مضارع من الشّوف، وهو التَّطلُّع والنَّظر إلى الشَّيء.

وكذلك نستعمله في كلامنا الدَّارجي، وكلُّ هذا يدلُّ على أنَّ لغتنا هي لغة العرب، وأنَّ ما خالطها من كلام العجم أو ما طرأ عليها من فساد لا يُخرجُها عن ذلك.

وهذا ختام لكتاب المباني، ويليه «كتاب المعاني»، والحمد لله وبه أستعين.



قرة عين الأبوين في رعاية وتربية البنات والبنين

نجيب جلواح

بعد الكلام المجمل عن تربيَّة الأولاد ورعايتهم، والَّذي سبق في الجزء الأوَّل من مقالي، أنتقل إلى تفصيل الكلام فيما يتعيَّن على الوالدين أن يَعلموه ويُعلِّموه أبناءَهم.

فأقولُ . و بالله أستعين .:

أول ما يعلَّم الصبي العقيدة الصحيحة:

على الآباء أن يغرسوا العقيدة الصَّافية الخالصة في نفوس أبنائهم، ويلقِّنوهم كلمة التَّوحيد من صغرهم، ويربُّوهم على مراقبة الله وخوفه في السِّرِّ والعلانية، ويُعَلِّموهم أنَّه في السَّماء، وأنَّه يسمع كلامهم، ويرى مكانهم، ويَعلم سرَّهم ونجواهم، إلى غير ذلك من أمور العقيدة الميسَّرة، الَّتي تلائم سنَّهم، وتُناسب مستواهم، حتَّى يتربَّوْا على معرفة الله وتوحيده، وحفظ حدوده، فيلجأون إليه في الرَّخاء والشِّدَّة، ويدعونه في السَّرَّاء والضَّرَّاء ويستعينون به.

ويُستحسن تشويق الصِّغار وتهيئتهم بلطيف العبارة، وتنبيههم إلى أهمِّيَّة ما يُلقى إليهم، مع إشعارهم بسهولة حفظه وفهمه ووعيه، ويكون ذلك بأسلوب مختصر، وكلام جامع ومُوجز وواضح؛ ليكون أوقع في النَّفس.

وهذا الذي ركَّز عليه لقمان الحكيم في موعظته لابنه؛ إذْ بدأها بنهيه عن الشِّرك . وهو يستلزم الأمر بالتَّوحيد .، فقال: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة لقمان].

وهو ما تجلَّى وظهر في وصيَّة رسول الله ﷺ لابن عمِّه عبد الله بن عبَّاس، وهو فتًى، إذْ قال رضي الله عنهما: كنتُ خلف رسول الله ﷺ يومًا، فقال: «**يَا غُلاَمُ! إنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلاَمُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ**»[1].

قال ابن قيِّم الجوزيَّة رحمه الله: «فإذا كان وقت نطقهم؛ فليُلَقَّنوا «لا إله إلاَّ الله، محمَّد رسول الله»، ولْيَكن أوَّل ما يقرع مسامعهم: معرفة الله . سبحانه . وتوحيده، وأنَّه . سبحانه . فوق عرشه، ينظر إليهم، ويسمع كلامهم، وهو معهم أينما كانوا»[2].

ولْيَكن تعليم الصِّغار توحيدَ الله قبل أيِّ علم آخر، بل هو مقدَّم على تعلُّم كتاب الله تعالى؛ فعن جُنْدُب بن عبد الله رضي الله عنه قال: «كنَّا غِلمانا حزاوِرة[3] مع رسول الله ﷺ فيعلِّمنا الإيمان

(1) رواه التِّرمذي (2516)، وهو في «صحيح سُنن التِّرمذي» للألباني (2043).
(2) «تحفة المودود بأحكام المولود» (ص231).
(3) جمع حَزْوَر أو حَزَوَّر: وهو الغلام إذا اشتدَّ وقوي وخدم، انظر: «الصِّحاح» للجوهري (629/2).

قبل القرآن، ثمَّ يعلِّمنا القرآن، فازددنا به إيمانًا، وإنَّكم - اليوم - تعلَّمون القرآن قبل الإيمان»[4].

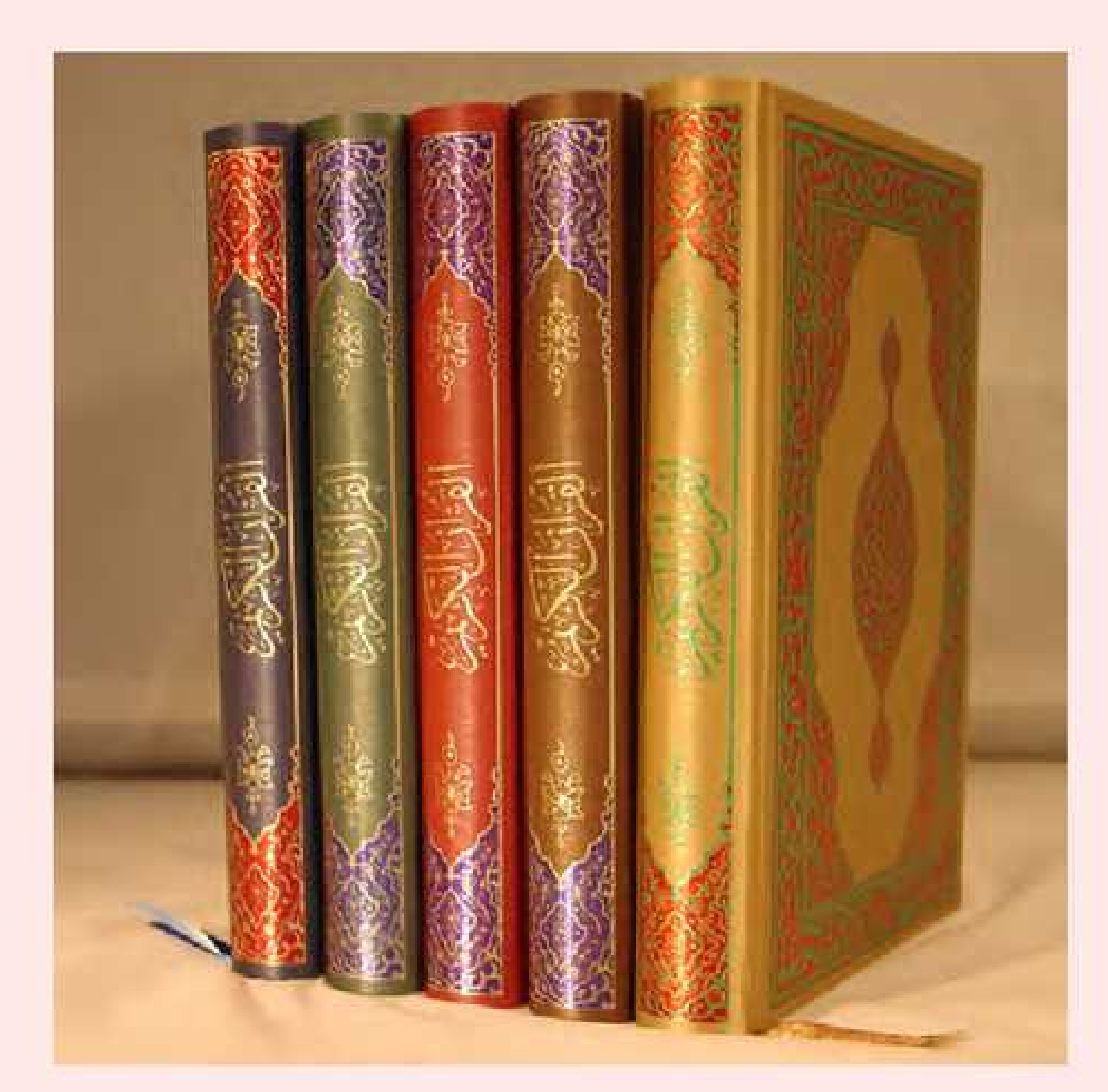
وهذا هو المنهج الذي سار عليه سلف هذه الأمَّة، إذْ كانوا يهتمُّون بعقائد أبنائهم، ويعلِّمونهم توحيد الله منذ الصِّغر.

وكانوا يحذِّرونهم مِن مخالطة أهل البدع والأهواء؛ لما في ذلك من العواقب الوخيمة، والآثار السَّيِّئة على عقائدهم، قال سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللهُ: «لأنْ يصحب ابني فاسقًا شاطرًا[5] سنِّيًّا أحبُّ إليَّ مِن أن يصحب عابدًا مبتدعا»[6].

وكانوا يختارون لهم المعلِّم السُّنِّيَّ، والمربِّي الصَّالح، صاحب الاتِّباع والخُلق الحسن، وكانوا يحذِّرون مِن وضعه في يد معلِّم مبتدع.

فكمْ مِن انحراف في الخُلق، وفساد في الاعتقاد، وقع فيه الصَّبيُّ بسبب معلِّمه؟!

قال أبو إسحاق الجُبْنَياني: «لا تُعلِّموا أولادكم إلاَّ عند رجل حسن الدِّين، فدِين الصَّبيِّ على دين معلِّمه»[7].



(4) أخرجه ابن ماجة (61) والبيهقي في «الكبرى» (5075) - واللَّفظ له - وهو في «صحيح سُنن ابن ماجة» للألبانيِّ (52).

(5) تُستعمل كلمة «شاطر» بمعنى: النَّبيه والذَّكيُّ والماهر، وهو خطأ، ومعناها الصَّحيح الفصيح: هو الَّذي أعيى أهله ومؤدِّبه خبثًا، انظر: «كتاب العين» للخليل بن أحمد (234/6).

(6) رواه ابن بطَّة في «الإبانة الصُّغرى» (ص89).

(7) انظر: «ترتيب المدارك وتقريب المسالك» للقاضي عياض (450/1).

تعليم الطفل القرآن:

حثَّ الإسلام على تعلُّم كتاب الله تعالى وتعليمه؛ قال رسول الله ﷺ: «**خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ القُرْآنَ وَعَلَّمَهُ**»[8].

وهذا يشمل التَّعليم اللَّفظيّ - تلاوةً وحفظًا - والمعنويَّ - تفسيرًا وشرحًا -، كما يشمل الوالد بتعليمه ولده.

فإنْ عجز الوالد عن تعليم ولده القرآن، أو شُغل عن ذلك، وكَّل مَن يقوم به - ولو بأجرة - فإنْ ترك ذلك لشحٍّ، قبُح فعله.

وقد رتَّب الشَّرع على هذا التَّعليم ثوابًا وأجرًا، لاسيما تعليم الوالد ولده؛ فقال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ القُرْآنَ وَتَعَلَّمَهُ وَعَمِلَ بِه، أُلْبِسَ يَوْمَ القِيَامَة تَاجًا مِنْ نُور، ضَوْؤُهُ مِثْلُ ضَوْءِ الشَّمْسِ، وَيُكْسَى وَالِدَاهُ حُلَّتَيْنِ، لا يَقُومُ بِهِمَا الدُّنْيَا، فَيَقُولاَنِ: بِمَ كُسِينا؟! فَيُقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا القُرْآنَ**»[9].

وبهذا التَّعليم قام السَّلف، فكان مِن ذلك أنْ حفظه صغارهم؛ فعن ابن أبي مُلَيْكة قال: «سمعتُ ابن عبَّاس رَضِيَ اللهُ عَنْهُما يقول: «سَلوني عن سورة النِّساء، فإنِّي قرأتُ القرآن وأنا صغير»[10].

بل كان مِن أولئك الصِّغار مَن يؤمُّ الكبار - وهو ابن ستّ أو سبع سنين - لحفظه، وهو عمرو بن سلمة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ[11].

أمر الصبي بالصلاة:

على وليِّ الطِّفل أنْ يأمره بالصَّلاة، ويُعوِّده عليها، وهو مِن حقِّ الولد على أبيه؛ قال - جلَّ شأنه -: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾ [طه: 132].

وهذا هو شأن المرسلين مع أهليهم؛ قال الله تعالى - عن نبيِّه إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ -: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥﴾ [سُورَةُ مَرۡيَمَ]، وحكى عن خليل الرَّحمن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ قوله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ﴾ [إبراهيم: 40].

وهو دأب الصَّالحين مع أبنائهم، فهذا لُقمان الحكيم يخاطب ابنه - وهو يعظه -: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [لقمان: 17].

(8) أخرجه البخاري (5027) من حديث عثمان بن عفَّان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(9) أخرجه الحاكم (2086) عن بريدة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وهو في «الصَّحيحة» (2829).

(10) أخرجه الحاكم في «المستدرك على الصَّحيحين» (3178)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشَّيخين ولم يخرِّجاه» ووافقه الذَّهبي.

(11) انظر: الحديث (4302) من «صحيح البخاري».

قضايا تربوية

وقد أمر النَّبيُّ ﷺ أولياء أمور الصِّغار أن يعوِّدوهم على الصَّلاة في سنٍّ مبكِّرة، فهي أعظم رُكن من أركان الإسلام بعد الشَّهادتين؛ فعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مُرُوا أَوْلادَكُمْ بِالصَّلاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ**»[12].

قال ابن حجر رحمه الله: «فإنَّ الأولاد ليسوا بمكلَّفين، فلا يتَّجه عليهم الوجوب، وإنَّما الطَّلب مُتوجِّه على أوليائهم أنْ يُعلِّموهم ذلك، فهو مطلوب من الأولاد بهذه الطَّريق»[13].

ولقد نبَّه النَّبيُّ ﷺ ـ في هذا الحديث ـ على أمرين مهمَّين، في تربيَّة الأولاد:

أوَّلهما: غرس الصَّلاة في الأولاد وهم صغار؛ ليتعوَّدوها كبارًا، ويتمرَّنوا عليها، وكون الغلام يُضرب عليها قبل البلوغ: دليل على إغلاظ العقوبة عليه إذا تركها متعمِّدًا بعد البلوغ.

الثَّاني: غرس الفضيلة والعفَّة فيهم؛ ليبتعدوا عن الرَّذائل، ويجتنبوا الفواحش.

قال النَّوويُّ رحمه الله: «قال الشَّافعيُّ في «المختصر»: «وعلى الآباء والأمَّهات أن يُؤدِّبوا أولادهم، ويُعلِّموهم الطَّهارة والصَّلاة، ويضربوهم على ذلك إذا عقلوا».

قال أصحابنا: ويأمره الوليُّ بحضور الصَّلوات في الجماعة وبالسِّواك، وسائر الوظائف الدِّينيَّة، ويُعرِّفه تحريم الزِّنا واللِّواط والخمر والكذب والغيبة وشبهها»[14].

كما أنَّ على وليِّ الطِّفل أن يتعهَّده ويسأل عنه: هل أدَّى صلاته أم ضيَّعها؟ فإنْ كانت الأولى، شجَّعه ليَمضيَ قُدُمًا، وإنْ كانت الأخرى، ذكَّره وحذَّره وخوَّفه؛ كي لا يتعوَّد تركها، ولا يتهاون فيها؛ فعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: «بتُّ عند خالتي مَيمونة، فجاء رسول الله ﷺ بعدما أمسى فقال: «**أَصَلَّى الغُلَامُ؟**»، قالوا: نعم، فاضطجع حتَّى إذا مضى من اللَّيل ما شاء الله، قام فتوضَّأ، ثمَّ صلَّى سبعًا أو خمسًا، أوْتر بهنَّ، لم يسلِّم إلاَّ في آخرهن»[15].

فأوَّل شيء بدأ به النَّبيُّ ﷺ ـ بعد دخوله البيت ـ هو أنْ سأل أهله قائلاً: «**أَصَلَّى الغُلَامُ؟**»، وفي ذلك بيان لما أشرنا إليه.

(12) أخرجه أبو داود (495)، وهو في «صحيح سُنن أبي داود» للألبانيِّ (466).
(13) «فتح الباري» (348/9).
(14) «المجموع شرح المهذَّب» (11/3).
(15) أخرجه أبو داود (1356)، وهو في «صحيح سُنن أبي داود» للألبانيِّ (1208).

وإذا علم وليُّ أمْر المسلمين بتهاون بعض الآباء في أداء هذا الواجب الشَّرعيِّ؛ عاقبهم على ذلك كي لا يعودوا إلى مثله.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله: «...بل تارك الصَّلاة شرٌّ من السَّارق والزَّاني وشارب الخمر وآكل الحشيشة، ويجب على كلِّ مُطاع أنْ يأمر مَن يُطيعه بالصَّلاة، حتَّى الصِّغار الَّذين لم يبلغوا، قال النَّبيُّ ﷺ: «**مُرُوهُمْ بِالصَّلاةِ لِسَبْعٍ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا لِعَشْرٍ، وَفَرِّقُوا بَيْنَهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ**».

ومَن كان عنده صغير مملوك، أو يتيم أوْ وَلد فلم يأمره بالصَّلاة؛ فإنَّه يُعاقب الكبير إذا لم يأمر الصَّغير، ويُعزَّر الكبير على ذلك تعزيرًا بليغًا؛ لأنَّه عصى الله ورسوله»[16].

ولقد كان السَّلف يحرصون على أمْر صغارهم بالصَّلاة، ويعاقبونهم على التَّفريط فيها وإضاعتها، ويؤدِّبونهم على التَّهاون فيها أو تأخيرها عن وقتها، أو تفويتها عن الجماعة؛ فعن عبد العزيز بن مروان أنَّه بعث ابنه عمر بن عبد العزيز إلى المدينة يتأدَّب بها، فكتب إلى صالح بن كَيْسان يتعاهده، فكان يلزمه الصَّلوات، فأبطأ يومًا عن الصَّلاة، فقال: ما حبسك؟ قال: كانت مُرجِّلتي تسكِّن شعري، فقال: بلغ منك حبُّك تسكين شعرك أن تُؤثره على الصَّلاة؟!

فكتب إلى عبد العزيز يذكر ذلك، فبعث إليه عبد العزيز رسولاً، فلم يُكلِّمه حتَّى حلق شعره»[17].

ولا يَكتفي الوالد بأمْر صغيره بالصَّلاة فحسب، بل عليه أن يبيِّن له أحكامها وكيفيتها، ويُعلِّمه كيف يتوضَّأ، وكيف يُصلِّي كما كان رسول الله ﷺ يصلِّي، ولعلَّ أحسن طريقة للوصول إلى تحقيق هذا التَّعليم؛ هو أنْ يقوم الوالد نفسه فيصلِّي أمام ولده، فيتعلَّمها الصَّغير ـ قولاً وفعلاً ـ.

وعليه أن يعوِّده على أدائها بشروطها وأركانها وواجباتها؛ قال ابن رجب الحنبلي: «...وأمَّا أنَّ الصَّبيَّ ممنوعٌ من الصَّلاة بدون الطَّهارة، فمتَّفقٌ عليه»[18].

وللوالد أنْ يُؤدِّب ولده، متى رأى منه إعراضًا عن صلاته، وله أن يضربه على تركها ضرب تأديب، لا ضرب تعذيب، هذا إنْ كان يعقل، وإلاَّ فلا؛ قال ابن مُفلح: «قال إسماعيل بن سعيد: سألتُ أحمد عمَّا يجوز فيه ضرب الولد؟ قال: الولد يُضرب على الأدب،

(16) «مجموع الفتاوى» (50/22 ـ 51).
(17) رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (136/45).
(18) «فتح الباري» (299/5).

قال: وسألتُ أحمد: هل يُضرب الصَّبيُّ على الصَّلاة؟ قال: إذا بلغ عشرًا، وقال حنبل: إنَّ أبا عبد الله قال: اليتيم يؤدَّب ويُضرب ضربًا خفيفًا، وقال الأثرم: سُئل أبو عبد الله عن ضرب المعلِّم الصِّبيان؟ فقال: على قدْر ذنوبهم، ويتوقَّى بجهده الضَّرب، وإنْ كان صغيرًا لا يعقل، فلا يضربه»[19].

تعليم الطفل العلم الشرعي:

بعد أن يغرس الوالد في ابنه العقيدة الصَّحيحة، ويعلِّمه القرآن، ينتقل إلى تعليمه أركان الإسلام، وما ينفعه من العلوم الشَّرعيَّة، الَّتي تقوده إلى العمل الصَّالح، فيتعلَّم الطِّفل أحكام الصَّلاة والصِّيام والحجِّ ونحوها.

ولَّما كان للعلم الشَّرعي أهميَّة كبرى، ومكانة رفيعة، كافأ رسول الله ﷺ مَن خدمه بأنْ دعا الله له أن يفقِّهه في الدِّين؛ فعن عبد الله بن عبَّاس رضي الله عنهما: أنَّ النَّبيَّ ﷺ دخل الخلاء، فوضعتُ له وَضوءًا، قال: «**مَنْ وَضَعَ هَذَا؟**» فأُخبِر، فقال: «**اللَّهمَّ فقِّهه في الدِّين**»[20].

وعلى المعلِّم أن يتدرَّج مع الطِّفل في تعليمه، ولا يُكثر عليه حتَّى لا يملَّ فيكلَّ؛ قال الشَّافعيُّ رحمه الله وهو يُوصي أبا عبد الصَّمد ـ مؤدِّب أولاد هارون الرَّشيد ـ: «...ولا تخرجنَّهم من علم إلى غيره حتَّى يُحكموه، فإنَّ ازدحام الكلام في السَّمع مَضلَّة للفهم»[21].

وإذا أحسن المؤدِّب تعليم الطِّفل صغيرًا، حفظ العلم كبيرًا؛ فعن عبد الله بن عُبيد بن عُمير قال: «كان في هذا المكان ـ خَلْف الكعبة ـ حلْقة، فمرَّ عمرو بن العاص رضي الله عنه يطوف، فلمَّا قضى طوافه جاء إلى الحلْقة، فقال: «مالي أراكم نحَّيتم هؤلاء الغلمان عن مجلسكم؟! لا تفعلوا، أَوْسِعوا لهم، وأدْنوهم، وأفْهموهم الحديث، فإنَّهم اليوم صغار قوم، ويوشكوا أنْ يكونوا كبار آخرين، قد كنَّا صغار قوم، ثمَّ أصبحنا كبار آخرين»[22].

قال ابن مُفلح ـ معلِّقًا على كلام ابن العاص رضي الله عنه السَّابق ـ: «وهذا صحيح لا شكَّ فيه، والعلم في الصِّغر أثبت، فينبغي الاعتناء بصغار الطَّلبة، لا سيما الأذكياء المتيقِّظين الحريصين على أخذ العلم، فلا ينبغي أنْ يجعل ـ على ذلك ـ صغرهم، أو فقرهم وضعفهم، مانعًا من مراعاتهم، والاعتناء بهم»[23].

وأمَّا إذا أهمل الوالد تعليم ولده ما يجب عليه معرفته، فهو عاص؛ لتفريطه في الواجب.

قال ابن قيِّم الجوزيَّة رحمه الله: «وسمعتُ شيخنا رحمه الله يقول: تنازع أبوانِ صبيًّا عند بعض الحكَّام، فخيَّره بينهما، فاختار أباه، فقالت له أمُّه: سلْه لأيِّ شيء يختار أباه؟ فسأله، فقال: أمِّي تبعثني كلَّ يوم للكُتَّاب، والفقيه يضربني، وأبي يتركني للَّعب مع الصِّبيان، فقضى به للأمِّ، قال: أنت أحقُّ به.

قال شيخنا: وإذا تَرك أحدُ الأبوين تعليم الصَّبيِّ، وأمْره الذي أوجبه الله عليه؛ فهو عاص، ولا وِلاية له عليه، بل كلُّ مَن لم يقم بالواجب في وِلايته فلا وِلاية له، بل إمَّا أنْ تُرفع يدُه عن الوِلاية، ويُقام مَن يفعل الواجب، وإمَّا أن يُضمَّ إليه مَن يقومُ معه بالواجب، إذ المقصودُ طاعةُ الله ورسوله بحسب الإمكان»[24].

تمرين الصبي على الصيام، وتعويده عليه:

لا تجب الطَّاعات والفرائض على الصَّبيِّ إلاَّ عند بلوغه، غير أنَّ للوالدين أجرًا إنْ درَّبا صغيراهما على العبادات، ومرَّناه عليها، كالصِّيام ـ مثلاً ـ وذلك ليعتاده كبيرًا، ويسهل عليه أداؤه إذا كُلِّف به ولزمه.

وقد كان السَّلف يأمرون أولادهم بالصِّيام إذا أطاقوه، ويدرِّبونهم عليه منذ نعومة أظفارهم، ودور الأمِّ في ذلك عظيم، فلها أن تُلهي صغارها باللُّعب المباحة حتَّى يمسكوا عن الطَّعام وينشغلوا بها إلى غروب الشَّمس؛ فعن الرُّبيِّع بنت مُعوِّذ قالت: أرسل النَّبيُّ ﷺ غداة عاشوراء إلى قرى الأنصار: «**مَنْ أَصْبَحَ مُفْطِرًا فَلْيُتِمَّ بَقِيَّةَ يَوْمِه وَمَنْ أَصْبَحَ صَائِمًا فَلْيَصُمْ**»، قالت: فكنَّا نَصومه بعد، ونُصَوِّم صبياننا، ونجعل لهم اللُّعبة من العِهن[25]، فإذا بكى أحدهم على الطَّعام أعطيناه ذاك، حتَّى يكون عند الإفطار»[26].

وعن ابن جريج ومعمر عن هشام بن عروة قال: «كان أبي يأمر الصِّبيان بالصَّلاة إذا عقلوها، والصِّيام إذا أطاقوه»[27].

يتبع

(19) «الآداب الشَّرعيَّة» (477/1).
(20) رواه البخاري (143).
(21) رواه أبو نُعيم الأصبهاني في «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء» (147/9)، والخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (187/3).
(22) رواه البيهقي في «المدخل إلى السُّنن الكبرى» (631).
(23) «الآداب الشَّرعيَّة» (244/1).
(24) «زاد المعاد في هدي خير العباد» (475/5).
(25) هو الصُّوف ـ مُطلقًا ـ، وقيل: الصُّوف المصبوغ، انظر: «المنهاج شرح صحيح مسلم ابن الحجَّاج» للنَّووي (14/8).
(26) أخرجه البخاريّ (1960)، ومسلم (1136).
(27) أخرجه عبد الرَّزَّاق في «المصنَّف» (7293).

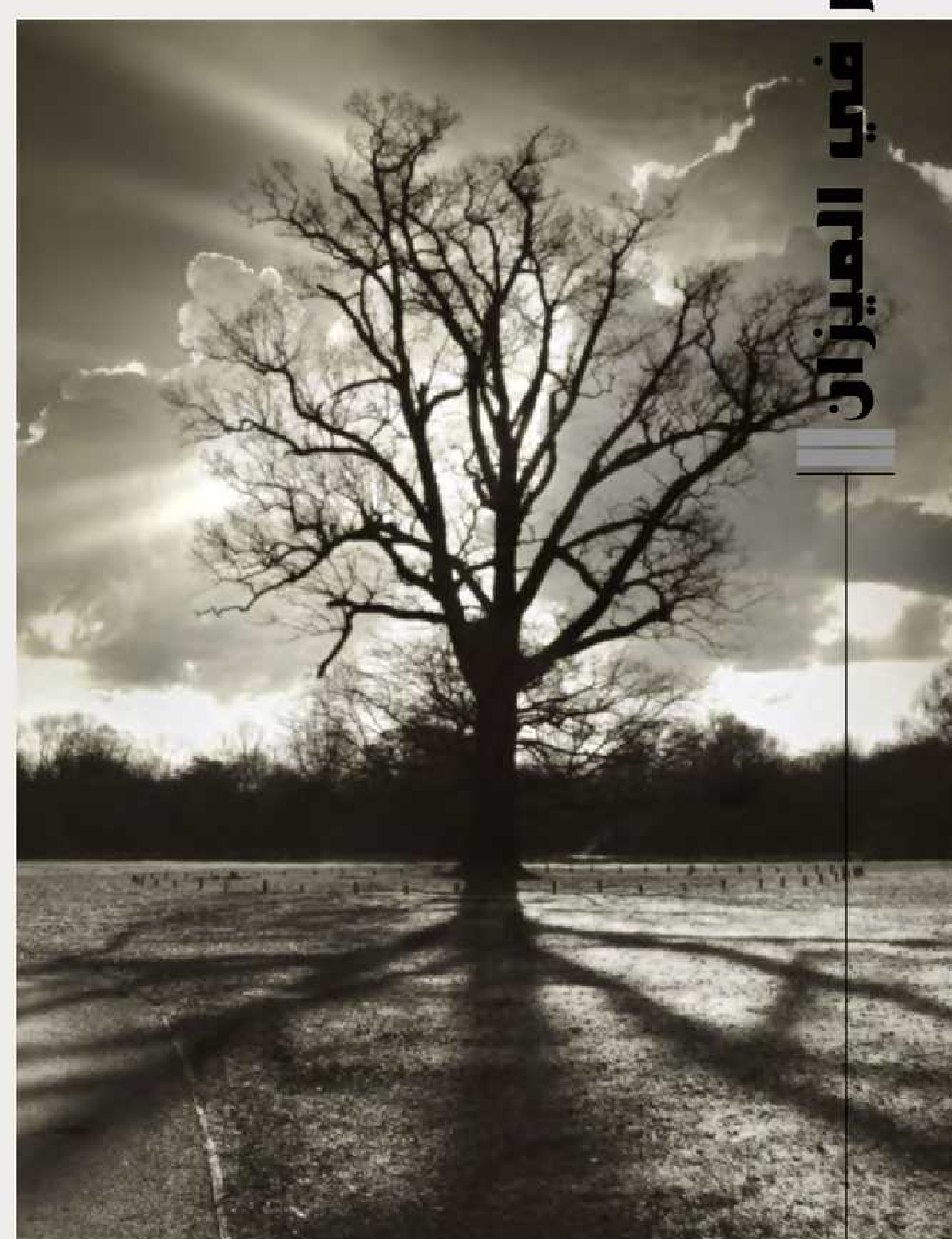
لا ينفق الباطل إلا بشوب من الحق

محمد رحيل

إمام خطيب ـ معسكر

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية رحمه الله:

«ولا ينفق الباطل في الوجود إلاَّ بشوبٍ من الحقِّ»[1].



هذا كلامٌ نفيسٌ، قاله عن دليل التَّتبُّع والاستقراء، وهو استقراء وأيُّما استقراء من مثل هذا الإمام الهمام.

معنى هذا: أنَّ الباطل لا يروج ـ في الغالب ـ إلاَّ إذا كان مشوبًا بحقٍّ، وذلك أنَّ الحقَّ إذا كان حقًّا محضًا لم نختلف فيه، وكذلك الباطل إذا كان باطلاً محضًا لم نختلف فيه، وهذا الشَّوب الَّذي عناه شيخ الإسلام رحمه الله هو عين لَبس الحقِّ بالباطل الَّذي نهى الله عنه اليهودَ.

شوب الحقِّ بالباطل هو صفة المغضوب عليهم، قال تعالى:﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [البقرة: 42]، قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى ناهيًا لليهود عمَّا كانوا يتعمَّدونَه من تلبيسِ الحقِّ بالباطل و تَمويهِه به، وكتمانِهم الحقَّ وإظهارِهم الباطلَ: ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ فنهاهم عن الشَّيئَين معًا، وأمرهم بإظهارِ الحقِّ والتَّصريح به، ولهذا قال الضَّحاك عن ابن عبَّاسٍ: ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ لا تخلطوا الحقَّ بالباطل، والصِّدق بالكذب.

وقال أبو العالية: ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ يقول: ولا تخلطوا الحقَّ بالباطل، و أدُّوا النَّصيحة لعباد الله من أمَّة محمَّد ﷺ.

(1) «مجموع الفتاوى» (35/190).

ويروى عن سعيد بن جبير و الرَّبيع بن أنس نحوه.

وقال قتادة: ﴿ وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ ﴾ ولا تلبسوا اليهوديَّة والنَّصرانيَّة بالإسلام وأنتم تعلمون أنَّ دينَ الله الإسلام وأنَّ اليهوديَّة والنَّصرانيَّةَ بدعةٌ ليست من الله[2].

إنَّ لكلام شيخ الإسلام أمثلةً كثيرةً أحببت أن أنبِّهَ عليها حتَّى لا يغترَّ بها من وقفَ عليها، دونكها:



1. «الخَمْسَة» الَّتي يعلِّقها النَّاس على أبوابهم وسيَّاراتهم: هذه الخامسة الَّتي هي عبارة عن يد بها خمسة أصابع قد كتب عليها قول الله تعالى: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة يوسف] فالآية حقٌّ والخامسة باطلٌ، فإذا ما جاء هذا العاميُّ المسكينُ الَّذي لا علمَ عنده ورأى هذه الخامسة وقد كتب عليها ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾، وقد شاع أنَّها تستعمل لدفع العين، ظنَّ أنَّها حقٌّ، فيشتريها ويعلِّقها والله المستعان، وما درَى المسكينُ أنَّها من جنسِ التَّمائم الَّتي قال فيها النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ الرُّقَى والتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**»[3]، وهذا شوبٌ للحقِّ بالباطل.

■■■

2. ما يعلِّقه النَّاس اليوم على الجُدران من الصُّور ذوات الأرواح وقد كتب عليها آيات قرآنية، كتلكم الصُّورة الَّتي تمثِّل صورة صبيٍّ قد رفع يديه يدعو وقد كُتِبَ إلى جنبه هذه الآية: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾ [سورة إبراهيم] فهذه ـ أيضًا ـ كسابقتها لا ينظر العاميُّ فيها إلاَّ إلى تضرُّع الصَّبيِّ ورسم الآية المكتوب بالخطِّ العريض فتأخذه العاطفةُ فيشتري الصُّورَةَ ويُعَلِّقُها، وما درى المسكين أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إِنَّ المَلاَئِكَةَ لا تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ**»[4]، ومثلُها آية الكرسي الَّتي كُتِبت بخطِّ الثُّلث على هيئة رجلٍ جالسٍ للتَّشهُّد رافع سبَّابتِه، فالآية حقٌّ والهيئة المكتوبة عليها باطل، إذ الصُّورةُ منهيٌّ عنها، ففي «الصَّحيحين» من حديث ابن عبَّاس مرفوعًا «**مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ**»[5].

■■■

3. الدَّعوة إلى و حدة الأديان: لقد تقدَّم أثر قتادة الَّذي قال فيه: «لا تخلطوا اليهوديَّة والنَّصرانيَّة بالإسلام وأنتم تعلمون أنَّ دينَ الله الإسلام»، وهذه الدَّعوة يكفي في إبطالها قول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة آل عمران]، لكنَّ أعداءَ الله زيَّنوا هذه الدَّعوة بألفاظ برَّاقة مثل قولهم: الإخاء الدِّيني ـ وحدة الأديان ـ التَّفاهم بين الأديان ـ نبذ التَّعصُّب المذهبي ـ الصَّداقة الإسلاميَّة المسيحيَّة ـ التَّضامن الإسلامي المسيحيُّ ـ التَّعايش بين الأديان... فراج أمرُها على خفافيش الدُّجى كما يقال، و تبنَّى الدَّعوةَ إليها بعضُ دعاة العصر تحت هذه الأسماء المزخرفة، والحمد لله أن سخَّر الله جلَّ وعلا علماءَ تصدَّوا لهذه الدَّعوة الخبيثة الَّتي يراد منها إلغاءُ الفروقِ بين الإسلام والأديان المحرَّفة المنسوخة، وأحسن ما وقفت عليه في الرَّدِّ على هذه الدَّعوة الخبيثة كتاب الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله «الإبطال لنظريَّة الخلط بين الأديان» فمن أحبَّ أن يقفَ على مراميها فليَطَّلِع على هذا الكتاب.

■■■

4. تسمية العقيدة بعلم الكلام: وهذه أيضًا يراد منها شوبُ العقيدة الصَّحيحة بعلم الكلام الَّذي ذمه السَّلف وأنكروه على الخلف، فعن أبي يوسف رحمه الله قال: «العلم بالكلام هو الجهل

(2) «تفسير ابن كثير» (1/10 ـ ط. مكتبة الصَّفا ـ ت 1425هـ ـ 2004م.

(3) أخرجه أبوداود (3883) و ابن ماجه (3530)، وابن حبان (1412)، وأحمد(3615)، وصححه الألباني في «الصَّحيحة» (1/584).

(4) رواه البخاري (3226)، ومسلم (2106).

(5) رواه البخاري (5963) ومسلم (2110).

والجهل بالكلام هو العلم، وإذا صار الرَّجل رأسًا في الكلام قيل زنديق أو رُميَ بالزَّندَقَة»[6].

وعنه أيضًا: «من طلب العلم بالكلام تَزَنْدَق».

وقال الشَّافعي رحمه الله: «حكمي في أهل الكلام أن يُضْرَبُوا بالجريد والنِّعال، و يُطافَ بهم في العشائر والقبائل ويقال: هذا جزاءُ من تركَ الكتابَ و السُّنَّة وأقبل على الكلام»[7]. إذن فهؤلاء مزجوا علم الكلام بعلم العقيدة الصَّحيحة حتَّى يتسنَّى لهم ترويجُ بدعِهم ومقالاتِهم الفاسدة كالتَّأويل الَّذي هو في الحقيقة تحريف.

قال الشيخ سليمان بن سحمان: «وخلف من بعدهم خلف على طريقتهم عبَّروا عن هذه المعاني الفلسفيَّة بعباراتٍ إسلاميَّة، يخاطبون بها من لا يعرف معاني هذه الأوضاع، و يجعلون مراد الله ورسولِه ﷺ من الآيات والأحاديث على ما أرادوا من معاني هذه الأوضاع الَّتي تخالف كتاب الله و سنَّةَ رسولِه ﷺ وأقوال سلف الأمَّة وأئمَّتِها...»[8].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إنَّ طائفةً من أهل الكلام يسمِّي ما وضعه «أصول الدين» وهذا اسم عظيم والمسمَّى به فيه من فساد الدِّين ما الله به عليم، فإذا أنكر أهل الحقِّ والسُّنَّة ذلك، قال المبطل: قد أنكروا أصول الدِّين...[9]

والمقصود أنَّ أهلَ الكلام خلطوا الحقَّ بالباطل فسمَّوا كتبَهم الَّتي ألَّفوها «بأصول الدين» مع ما فيها من تلبيسٍ و تحريفٍ و ما ذاك إلاَّ ليروِّجوا باطلهم في تلكُم القوالبِ، واللهُ المستعان.

■■■

5. تسمية المسمَّيات بغير أسمائها: وهذا من شوبِ الحقِّ بالباطل، ومن صورِه الكثيرة في عصرنا قول بعضهم عن الخمر: مشروباتٌ روحيَّة، وعن الرِّشوة: هديَّة، ويقولون عن التِّوَلة - الَّتي هي نوع من السِّحر يجعلونه بين المرأة والرَّجل، يزعمون أنَّه يحبِّب بعضهما إلى بعض - طيبٌ، وتراهم يذهبون إلى السَّحرة وإذا أنكرت عليهم يقولون: فلان لا يعمل إلاَّ الطِّيب، ومرادهم أنَّ هذا السَّاحر يفعل ذلك من أجل تلاحُم الزَّوجين ونحوه لا من أجل افتراقهما، ويرونَه شيئًا ممدوحًا وهو عين السِّحر ويسمِّيه العلماء مسألة الصَّرف والعطف، وهي محرَّمة لقول النَّبيِّ عليه الصَّلاة والسَّلام: «**إنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**» وجه شوبِ الحقِّ بالباطل في هذه المسألة، أنَّ النَّاس سَمَّوا عمَل هذا السِّحر طيِّبًا، والسِّحر لا يكون طيِّبًا أبدًا، بل هو كفر بالله تعالى.

■■■

هذا ما يسَّر الله جمعه، نسأل الله تعالى أن ينفعَ به كاتبَه وقارئَه، وأن يجعلَه خالصًا لوجهه الكريم إنَّه وليُّ ذلك والقادر عليه، والحمد لله ربِّ العالمين.

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وآله وصحبه أجمعين.



(6) انظر: «الإبانة» لابن بطَّة (671)، و«شرح الطَّحاويَّة» (69).
(7) «شرح العقيدة الطَّحاوية» (ص75) لابن أبي العز - ط. المكتب الإسلامي - (ت 1416هـ - 1996م).
(8) «الصَّواعق المرسلة على الشُّبه الدَّاحضة الشَّامية» (ص6) للشَّيخ سليمان ابن سحمان - دراسة و تحقيق عبد السَّلام بن برجس - دار العاصمة/الرياض - المملكة العربيَّة السُّعوديَّة.
(9) «مجموع الفتاوى» (4/56).



بريد القرَّاء



ردود قصيرة:

نشكر الأخ الفاضل تقي الدِّين سحنون ـ حفظه الله ـ من عين ولمان بمدينة سطيف على تهنئته لنا وحسن ظنِّه بإخوانه، فجزاه الله خيرًا.

■■■

يُشكر كثيرًا الأخ المكرَّم عبد القادر كبير ـ سدَّده الله ـ من منطقة عين الذَّهب بولاية تيارت على مشاركته بمقال بعنوان «هديَّة في سطور لكلِّ معاق محسور»، يذكِّر فيه إخوانه المعاقين بنعم الله تعالى عليهم الكثيرة، فلعلَّه إن تيسَّرت الأسباب مستقبلاً أن ننشره في ركن مشاركات القرَّاء، والله الموفِّق.

■■■

كما نتقدَّم بالشُّكر الجزيل للأخ المحبِّ أبي عبد الله مسعود الجلفي ـ حفظه الله ـ على عنايته بعلم الحديث وتخريجه، وحسن تتبُّعه، ونخبره أن تعقيبه قد وصل إلى المعني به، والله مِنْ وراء القصد.

■■■

إلى الأخ الحبيب الَّذي رمز إلى اسمه بـ (أ.م) ـ وفَّقه الله ـ، نشكر له حرصه على نشر الخير ونفع الآخرين، وممَّا نقترحه عليه هو اقتناء عدد من نسخ مجلَّتنا وتوزيعها مجَّانًا على من يجد كلفة في شرائها، ونسأل الله الكريم أن يبارك له في ماله وعمله.

■■■

وأمَّا الأخ الماجد فريد بوبشير ـ حفظه الله ـ من بلدية آيت يحيى موسى بولاية تيزي وزو؛ فنشكره كثيرًا على جهده المبذول في مقالَيْه، أحدهما بعنوان: «ضوابط الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر»، والآخر بعنوان: «تسلية الفقير بأحاديث البشير النَّذير»، ولا يمكن نشرهما لطولهما، والله الموفِّق.

■■■

والشُّكر الجزيل موصول أيضًا إلى الأخ الفاضل عبد الرَّزَّاق عبد اللاَّوي من منطقة بوزرِّيعة بولاية الجزائر على حرصه على المساهمة في نشر الإصلاح والفضيلة، وإن احتجنا إلى خدماته سنتَّصل عليه، بارك الله فيه ووفَّقه لكلِّ خير.





واحة الإصلاح

إعداد: أسرة التحرير

المؤمن كالنحلة

* قال الإمام ابن القيِّم رحمه الله:

«كنْ في الدُّنيا كالنَّحلة، إن أكَلت أكَلت طيِّبًا، وإنْ أطعَمَتْ أطعَمت طيِّبًا، وإن سقَطَت على شيءٍ لم تكسرْه ولم تخدشْه».

[«الفوائد» (ص118)]

إحصاء العمل

* قال الشَّيخ ابن باديس رحمه الله عند قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾:

«على العاقل ـ وقد علم أنَّه محاسب عن أفعاله، وعلى آثار أقواله ـ أن لايفعَل فعلاً، ولا يقول قولاً، حتَّى ينظر في عواقبه، فقد تكون تلك العَواقب أضرَّ عليه من أصل القول وأصل الفِعل، فقد يقول القولَ مرَّةً ويفعل الفعل مرَّةً، ثمَّ يقتدي به فيه آلافٌ عديدةٌ في أزمنة متطاولة.

حقًّا إنَّ هذا لشيءٌ تنخلع منه القلوب، وترتعدُ منه الفرائصُ، وصَدَق القائل من السَّلف رضي الله عنه: «السَّعيد مَن ماتت معه سيِّئاتُه»».

[«تفسير ابن باديس» (2/306)]

قبول التذكير من كُلِّ مذَكِّر

* قال الشَّيخ ابن باديس رحمه الله:

«كما تُقبل كلمةُ الحقِّ من كلِّ قائل، كذلك يُقبل التَّذكير من كلِّ مذكِّر، ولو كان المذكِّر منْ كُمَّل العباد والمذكَّر من أوساطهم أو أدناهم، وفي عباد الرَّحمن المذكُورين في استماعهم إذا ذُكِّروا من أيِّ مذكِّر القدوةُ الحسنةُ.

قال الله تعالى: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾.

فالتَّذكير بآيات القرآن والأحاديث النَّبويَّة، هذا هو التَّذكير المشروع المتبُوع، والدَّواء النَّاجع المجرَّب، ولذلك تجد مواعظ السَّلف كلَّها مبنيَّةً عليه راجعةً إليه، والنُّصح لله ولرسوله وللمسلمين في لزوم ذلك والسَّير عليه».

[«تفسير ابن باديس» (2/163)]



درر من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ

«الهجر الجميل هو: هجر بلا أذى، والصَّفح الجميل: صَفحٌ بلا معاتبة، والصَّبر الجميل: صبرٌ بغير شَكوى إلى المخلُوق»

[«مجموع الفتاوى» (10/666)]

«لو فُرض أنَّا علمْنا أنَّ النَّاس لا يتركُون المنكر، ولا يعترفون بأنَّه مُنكر، لم يكُن ذلك مانعًا من إبلاغ الرِّسالة وبيان العلم»

[«اقتضاء الصراط المستقيم» (ص: 45)]

«مَن أحبَّ أحداً لغير الله، كانَ ضَررُ أصدقائه عليه أعظَم من ضَرر أعدائه»

[«مجموع الفتاوى» (10/605)]

«النَّاس إذا تعاونوا على الإثم والعُدوان أبغضَ بعضُهم بعضاً»

[«مجموع الفتاوى» (15/128)]

«عمَّار مساجد الله لا يخشَونَ إلَّا الله، وعمَّار مساجد المقَابر يخشَونَ غيرَ الله، ويرجُون غيرَ الله»

[«الرَّدُّ على البكري» (2/563)]

«والمطلوب منَ القرآن هو فهمُ معانيه والعملُ به، فإنْ لم تكُن هذه همَّةُ حافظه لم يكن من أهل العلم والدِّين».

[«مجموع الفتاوى» (23/55)]

قائمة بأسماء الفائزين
في مسابقة مجلة الإصلاح الأولى

الذكور	
الفائز	المنطقة
1. حسان عريف	الشلف
2. أحمد سلطاني	الجلفة
3. الصالح ميرابطين	سطيف
4. عبد الرحمن عامر	الجزائر
5. محمد تاحي	عين الدفلى
6. عبد العالي قريفي	وادي سوف
7. موسى جريبيع	الجلفة
8. نور الدين داود	الجزائر
9. محمد مسلوب	تبسة
10. سعد قصري	المسيلة

الإناث	
الفائزة	المنطقة
1. خديجة قندوزي	الجزائر
2. فاطمة عثماني	الجلفة
3. سامية سالمة	البليدة
4. أمينة عرض الله	تيارت
5. خولة واطحي	تلمسان
6. بدرة قاب	ميلة
7. مبروكة سعادة	وادي سوف
8. جميلة نتاج	تيارت
9. الزهرة بن فيسة	غليزان
10. أمال بخاخ	سطيف

ملاحظة: على الفائزين الاتصال بإدارة المجلَّة لتسلُّم جوائزهم.